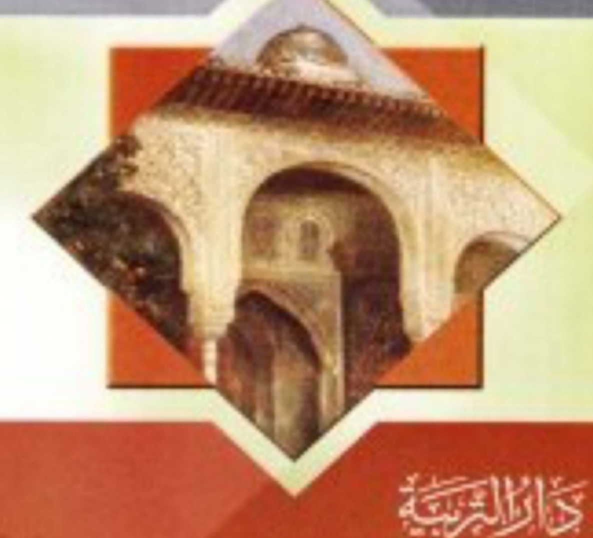
اسْتِجاباتٌ إسْلاميّةٌ لِصَرَخاتٍ أندَلُسِيَّةٍ

الدكتور
محمد موسى الشريف



دار التربية
دار ابن كثير

استجابات إسلامية
لصرخات أندلسية

الطبعة
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

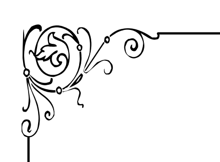
استجابات إسلامية

لصرخات أندلسية

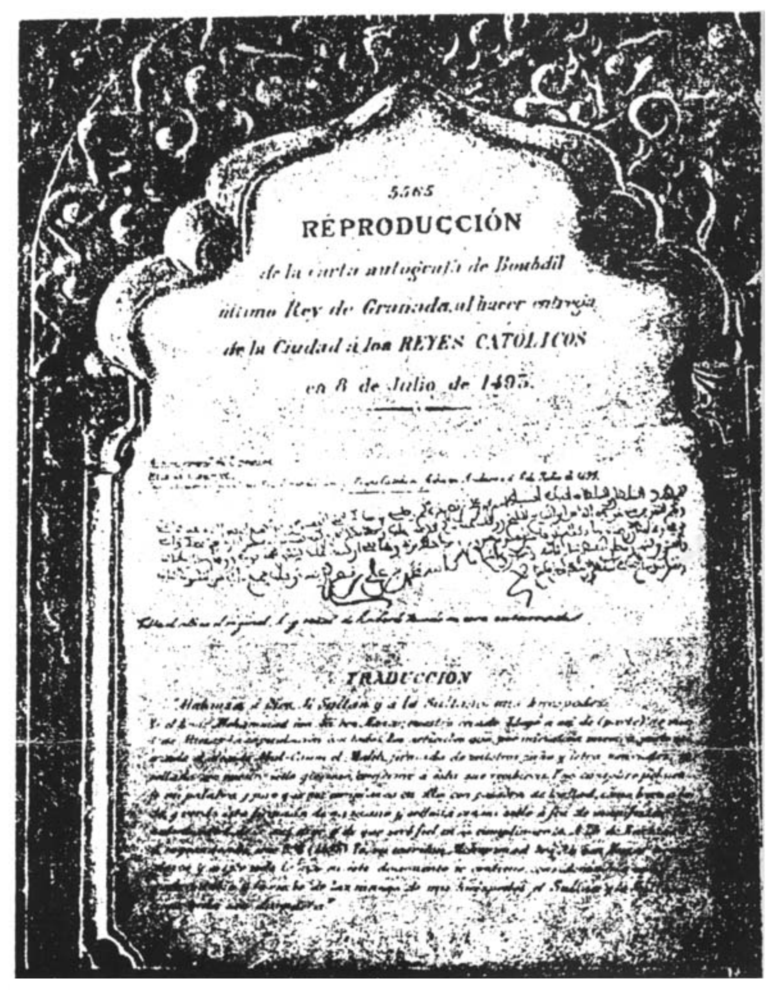
تأليف

الدكتور

محمد موسى الشريف



بسم الله الرحمن الرحيم



5565

REPRODUCCIÓN

de la carta autógrafa de Boabdil

último Rey de Granada, al hacer entrega

de la Ciudad á los REYES CATÓLICOS

en 8 de Julio de 1493.

TRADUCCION

موافقة أبي عبد الله محمد (الحادي عشر)، آخر ملوك غرناطة، على ترك الأندلس، بتاريخ ٢٣ رمضان ٨٩٨هـ (٨ تموز = يوليو ١٤٩٣م). عن الصورة المحفوظة في المتحف الحربي (Museo del Ejercito) بمدريد

فــجــائــعُ الــدهــرِ أنــواع مــنــوعــة
ولــلــــزمــــان مـــســـرات وأحــــزانُ
ولــلــحــوادث ســلــوان يــســهــلــهــا
ومــا لــمــا حــل بــالإســلام سُــلــوانُ
دهـــى الـــجـــزيـــرة أمـــر لا عـــزاء لـــه
هـــوى لـــه أحـــد وانـــهـــدّ ثـــهـــلان
أصـابـهـا الـعـيـن في الإسـلام فـارتـزأت
حـتـى خـلـت مـنـه أقـطـار وبـلـدان
فـاسـأل بـلـنـسـيـة مـا شـأنُ مـرسـيـة
وأيـــن شـــاطـــبـــة أم أيـــن جـــيـــان
وأيــن قــرطــبــة دار الــعــلــوم فــكــم
مـن عـالـم قـد سـمـا فـيـهـا لـه شـانُ
وأيـن حـمـص ومـا تـحـويـه مـن نـزه
ونــهــرهــا الــعــذب فــيــاض ومــلآن

قواعد كن أركان البلاد فما
عسى البقاء إذا لم تبق أركانُ
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف
كما بكى لفراق الإلف هيمانُ
على ديارٍ من الإسلام خالية
قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما
فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة
حتى المنابر ترثي وهي عيدانُ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فهذه الطبعة الثانية ـ بفضل الله تعالى ـ من هذا الكتاب، وهو آثر كتبي لدي لسببين:

الأول: أنه من أول ما وفقني الله ـ تعالى ـ لكتابته وبحثه.

الآخر: أن قضية هذا الكتاب هي ما حدث لمسلمي الأندلس، وهو يشبه ـ إلى حد كبير ـ ما يحدث لمسلمي فلسطين والبوسنة وكشمير في هذه الأيام، فلعمق الصلة بين هذه الأحداث وتلك كان هذا الكتاب مثيراً للشجن، ومذكراً ورابطاً بين الأمس واليوم، ولذلك كان له مكان الصدارة بين ما كتبت.

أسأل الله تبارك وتعالى أن ينفعني والمسلمين بما كُتب ويجعله في موازين أعمالي يوم القيامة، إنه سميع مجيب.




مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله ناصر عباده المؤمنين ولو بعد حين، ووعد بدخول جنات عدن عباده المجاهدين، والصلاة والسلام على من بعث بالقرآن والسيف ليطوي ممالك الجبارين، ويزيل الطغاة والملحدين ليستضيء العالم بنور الدين، ويزول عنه ظلام الجاهلين، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

ليس عجباً أن يطرق موضوع قديم كهذا اليوم، إذ أننا نشاهد إخواننا في كل مكان من المعمورة ـ تقريباً ـ يحاربون ويضطهدون ولا نجد الرد المناسب ولا الاستجابة المطلوبة نحوهم، وسوف يطالع القارئ الكريم كيف استجاب المسلمون للصرخات الأندلسية في وقت تباعدت فيه الديار ونأت، ولم يكن لوسائل الإعلام في ذلك الزمان جزء مما للعالم اليوم من الإمكانيات الضخمة.

وليس الغرض من طرح هذا الموضوع بعث التشاؤم وزيادة الأحزان، ولكن الغرض الأساسي منه هو استقاء العبرة من أحداث التاريخ وعدم الاكتفاء بالعَبرة عند تتابع الكوارث والمصائب، فالعالم الإسلامي بحاجة إلى استنهاض أهل الغيرة والهمة والقيام بعمل جاد وليس البكاء الذي هو من شيمة الضعاف والمنقطعين. ولله در تلك

المرأة التي خاطبت ابنها ـ الملك أبا عبد الله الصغير ـ قائلة له عندما رأته يبكي غرناطة آخر معاقل المسلمين:

«**ابك كالنساء ملكاً لم تحافظ عليه كالرجال**».

وما أشبه الليلة بالبارحة، فهذه معاقل المسلمين في البوسنة والهرسك تُطوى، والصليبيون يهددون باقي الوجود الإسلامي في كوسوفو وألبانيا وغيرهما من ديار المسلمين، فالله المستعان.

وسوف يجد القارئ في هذا الكتاب أمثلة للحكام ومواقف لهم تكاد تماثل ما يراه اليوم من تنازلات وخيانات وعمالات لكثير من حكام المسلمين، وفي الكتاب أيضاً مواقف ذليلة تشابه في ذلتها ما تلقاه أمتنا اليوم من ذل وهوان.

وسوف أركز في هذا البحث على أمرين رئيسين:

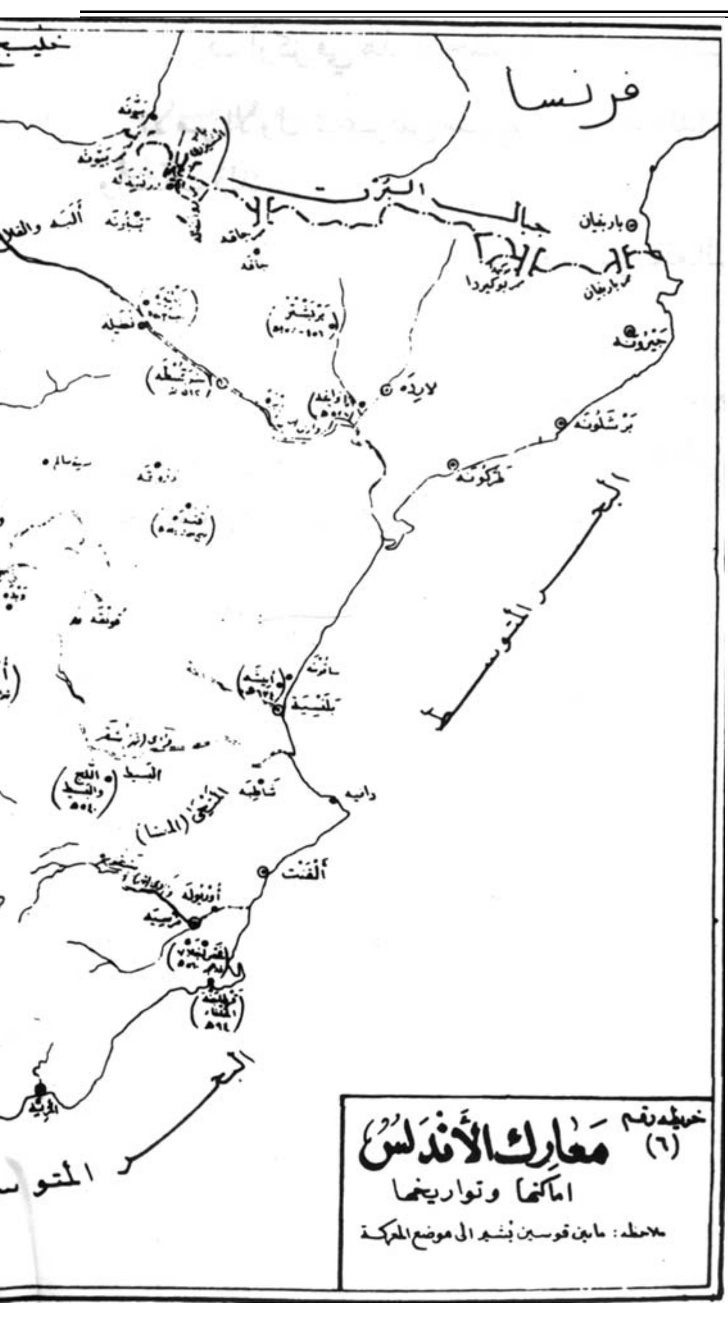
الأمر الأول: عرض سريع لسقوط المدن الأندلسية وأسباب ذلك.

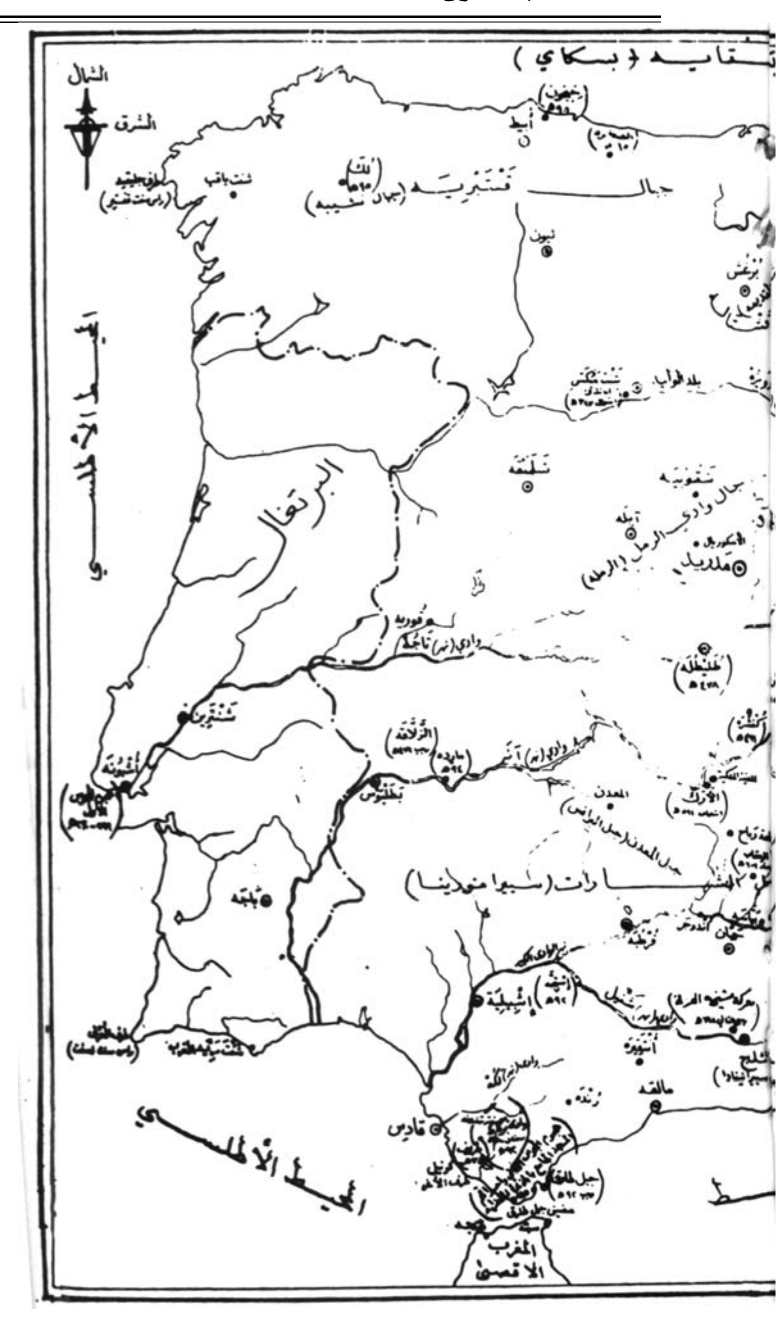
والأمر الآخر: استنجاد أهل الأندلس بالعالم الإسلامي والاستجابة لهذه الصرخات.

وسوف أسوق قبل ذلك نبذاً قصيرة لبيان تاريخ المسلمين في الأندلس مما يعين على فهم الأحداث الواردة في هذا البحث، والله الهادي إلى سواء السبيل.

=


فرنسا
جبال البرت
بارنيان
جيرونه
لارِدَه
برشلونه
طركونه
البحر المتوسط
بلنسية
دانيه
ألقنت
مرسيه
البحر المتوسط
خريطة رقم (٦)
معارك الأندلس
اماكنها وتواريخها
ملاحظة: ما بين قوسين يشير الى موضع المعركة


الشمال
الشرق
البرتغال
ليون
شلمنقة
شقوبية
أبلة
مدريد
طليطلة
وادي (نهر) تاجة
شنترين
أشبونة
بطليوس
الزلاقة
ماردة
المعدن
الأرك
باجة
جبال الشارات (سييرا مورينا)
قرطبة
إشبيلية
قادس
مالقة
المغرب الأقصى
المحيط الأطلسي

مدخل تاريخي

يتكون المجتمع الأندلسي قبل الفتح الإسلامي من عنصر القوط الغربيين الذين حلوا محل البرابرة الجرمان من قبائل الوندال بعد غارات عديدة من جانب القوط[١]، ولما دخل المسلمون شبه الجزيرة الإيبرية[٢] فاتحين تهاوى القوط أمام تكبيرات المجاهدين وحماس الفاتحين، ولم يستطع لُذْريق ـ ملكهم ـ أن يفعل شيئاً على الرغم من أن جيشه بلغ أربعين ألفاً على أقل التقديرات، وجعله بعض المؤرخين مئة ألف، وكان جيش المسلمين اثني عشر ألفاً عامتهم من البربر، وقائدهم طارق بن زياد.

ومما يوضح إسلامية المعركة وغاية الفاتحين أن قائد جيش لُذْريق ـ تدمير ـ أرسل استغاثة إليه قائلاً: «إن قوماً لا يُدرى أمن أهل الأرض أم من أهل السماء قد وطئوا إلى بلادنا وقد لقيتهم فلتنهض إليّ بنفسك»[٣].

وخف لُذْريق بغرور الكافر لينجد قائد جيشه ومعه «أعداد دواب لا تحمل غير الحبال لكتاف الأسرى إذ لم يشكّ في أخذهم»[٤]

---

(١) «الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب»: ٢٤.

(٢) وهذا هو اسم البلاد التي تتكون من إسبانيا والبرتغال.

(٣) «التاريخ الأندلسي»: ٥٢.

(٤) المصدر السابق: ٥٣.

و«اقتتل المسلمون والمشركون ثمانية أيام قتالاً شديداً وصبر الفريقان صبراً عظيماً، ثم أنزل الله عز وجل نصره على المسلمين»[١].

هكذا نصر الله عبده طارق بن زياد وجنده سنة ٩٢هـ في رمضان، شهرِ النصر، وتُسمى هذه المعركة «معركة وادي برباط».

واستمر طارق يفتح البلاد الإيبرية وينشر فيها نور الإسلام، ووصل حتى طليطلة ماراً بإشبيلية وجيان، وأرسل سرايا لفتح قرطبة ومالقة وغرناطة وغيرها.

ولما سمع موسى بن نصير بما فعل طارق خف إليه في حملة قوامها ثمانية عشر ألفاً من جند الله الموحدين ليعين طارقاً ويكمل فتح باقي الأندلس.

وإذا أردت ـ أخي الكريم ـ أن تعرف بعض خصائص موسى بن نصير فاقرأ ما يلي لتعلم كيف فتح المسلمون تلك البلاد:

«كان من التابعين ـ رضي الله عنه ـ وكان عاملاً كريماً شجاعاً ورعاً تقياً لله تعالى».

«وكان من رجال العالم حزماً ورأياً وهمة ونبلاً وشجاعة وإقداماً».

«وكان موسى بن نصير حين أنفذ طارقاً مكباً على الدعاء والبكاء والتضرع لله تعالى والابتهال إليه في أن ينصر جيش المسلمين، وما عُلم أنه هزم له جيش قط»[٢].

(١) المصدر السابق: ٥٤.

(٢) هذه النصوص وما سبقها مأخوذة بتصرف قليل من «التاريخ الأندلسي»، وقد نقلها مؤلفه بدوره من مؤلفات عديدة.

«ولو أن قائداً معه ثلاثمئة ألف مقاتل ما أحاط بالأندلس وأثخن فيها ما أحاط موسى وأثخنه في ذلك الأمد القصير بين أمم أعداء تموج حواليه كالأبحر الزاخرة. وما رأى الأندلس وحدها كفؤاً لهمته بل حدثته نفسه، والتي قل مثلها في نفوس البشر في بُعد الهمة، أن يوغل في أرض الإفرنج ويعطف منها إلى الشرق حتى ينفذ من القسطنطينية»[١].

أرأيت أخي القارئ: جد وعزيمة وهمة، عوامل اجتمعت مع قوة الإيمان وعظم التوكل لتدك معاقل الكفر وتنشر نور الإسلام، وبمثل هذه العوامل يعود مجد الإسلام من جديد، إن شاء الله تعالى.




(١) «التاريخ الأندلسي» ١٢٤ نقلاً عن تاريخ غزوات العرب، ٥٨ (تعليق شكيب أرسلان).

المجتمع الجديد
في الأندلس

أصبح المجتمع في الأندلس ـ بعد الفتح المجيد ـ يتكون من فئات متعددة هي:

١ـ **العرب**، وكانوا يمثلون صفوة المجتمع الأندلسي وقيادته وكان منهم قيسيون ويمنيون وشاميون.

٢ ـ **البربر**، وهم الذين كان لهم الدور الأكبر في الجهاد في الأندلس وينتمون إلى قبيلتي زناته ومصمودة، وقد استقروا في المناطق الجبلية.

٣ ـ **الإسبان** الذين دخلوا في دين الله أفواجاً، وكانوا ينحدرون من أصول عديدة: قوط، وندال، . . . إلخ.

٤ ـ **المستعربون**، وهم الإسبان الذين كانوا يعيشون بين المسلمين ويتكلمون العربية ولكنهم كانوا محتفظين بدينهم، ولقد عوملوا معاملة حسنة وتمتعوا بحرية تطبيق شعائر دينهم، كما هو شأن المسلمين في معاملتهم لأهل البلاد المفتوحة.

٥ ـ **اليهود**، الذين تمتعوا بحرية كبيرة فقدوها أيام القوط، ولقد ترجموا الكتب العربية إلى العبرية واللاتينية ونبغ منهم عدد في الطب والفلسفة والفَلك والكيمياء(١).

---

(١) «الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب» ٢٤ ـ ٢٥ بتصرف.

الحضارة الإسلامية في الأندلس

لقد كان الفتح الإسلامي للأندلس نعمة عظيمة على أوروبة كلها، إذ أوصل المسلمون لأهل تلك البلاد النور المعنوي الباقي الخالد المتمثل في رسالة الإسلام العظيمة، وأوصلوا لهم النور الحسي المتمثل في الحضارة العظيمة التي أقاموها فأنجبت أجيالاً بارزة من العلماء والمفكرين والمبدعين في مختلف فروع العلوم والمعارف، وقدموا للحضارة العربية الإسلامية والإنسانية العالمية إسهامات جليلة كان لها الفضل الأكبر في نهضة أوروبة الحديثة، إذ فتحت لرواد تلك النهضة آفاقاً وطرقاً للإبداع والاختراع والابتكار.

ولنقرأ سوياً بعض تلك النماذج الحضارية في المجال الأدبي:

يقول روسكين جب:

«لعل خير ما أسدته الآداب الإسلامية لآداب أوروبة أنها أثرت بثقافتها وفكرها العربي في شعر ونثر القرون الوسطى».

وهناك قصص أوروبية تعتبر أندلسية قلباً وقالباً مثل قصة «دون كيشوت»، وقصة «رودينسون كروز» المقتبسة من قصة «حي بن يقظان» للكاتب الأندلسي ابن طفيل، وغيرهما من عشرات الأمثلة.

وفي المجال الفلسفي استفادت أوروبة من فلاسفة الأندلس أمثال: ابن باجة السرقسطي، وابن طفيل، وابن رشد[١] حتى قيل إن تعاليم ابن رشد الفلسفية هي التي دفعت الأوروبيين إلى عصيان تعاليم الكنيسة والأخذ بمبدأ حرية الفكر وتحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة مما دفع الكنيسة إلى إصدار عدة قرارات بالحرمان لمن يردد فلسفته.

واستطاع مسلمة المجريطي أن يكون إماماً في الرياضيات في الأندلس وخطا هو وغيره من رياضيّي المسلمين خطوات هائلة في تطوير علومها المختلفة من حساب وهندسة وجبر وميكانيكا وحساب مثلثات وفلك، وقد نقل بابا روما قبل أن يصل إلى البابوية نظام الحساب ونظام الصفر إلى أوروبة من الأندلس.

وقد كان مرصد قرطبة مناراً لعلم الفَلك، واستطاع الزرقالي الطليطلي أن يخترع جداول فلكية تعتمد على قوانين عديدة فيما يخص كل كوكب وحركاته ووضعه وسرعته وانتقاله ورجوعه وما إلى ذلك، وقد نسب هذه الجداول لنفسه ألفونسو العاشر القشتالي وصارت تعرف في الغرب باسمه كعادة الأوروبيين في غمط المسلمين حضارتهم وعلمهم.

ويصعب حصر استكشافات المسلمين في علم الفلك وعظمتهم في هذا المجال، ولا تزال كثير من المصطلحات الفلكية الغربية اليوم تحمل الأسماء العربية كما هي بدون تحريف تقريباً.

وفي المجال العسكري استطاع الغرب أن يستفيد من تقدم المسلمين في اختراع القنابل والأسلحة النارية، وعندما هاجم ألفونسو الحادي

(١) هذا على ما للفلسفة وهؤلاء الفلاسفة من مآخذ شرعية لا مجال لذكرها هاهنا.

عشر مدينة الجزيرة الخضراء جنوب الأندلس عام ١٣٤٢م فاستعمل المسلمون ضده الأسلحة النارية، وكان حاضراً معه آنذاك كونت دربي وكونت سالسبوري الإنجليزيان فشاهدا نتائج هذا الاختراع وأسرعا في نقل كيفية صنعه واستعماله إلى بلادهم، واستخدمه الإنجليز بعد أربع سنوات في معركة «كرسي» ضد الفرنسيين.

وأما الطب والجراحة فيكفي في هذا المجال عائلة ابن زهر، وابن رشد، وابن البيطار المالقي، وابن حزم الأندلسي وأبو القاسم الزهراوي وغيرهم ممن ترجمت كتبهم وكانت مراجع معتبرة إلى فواتح القرن التاسع عشر.

وفي ميدان الصناعة كان للأندلس دور بارز في تعريف الأوروبيّين بعدد هائل من الصناعات منها الورق والدباغة والنسيج والخزف والزجاج والسكر والبارود والزخرفة وغيرها.

ويكفي أن أول مصنع للورق في أوروبة كان في إيطاليا، وأقيم سنة ١٢٧٦م، وكان الفضل في ذلك يعود إلى مصنع الورق في شاطبة ومصانع الورق في المغرب العربي.

وأما الزراعة فيعود الفضل للمسلمين في تعريف أوروبة بمزروعات لم تكن معروفة لديها قبل ذلك مثل القطن وقصب السكر والبرقوق والياسمين والزعفران والزنجبيل وغيرها[١].

والمقام يضيق عن التفصيل، وحسب المعتبر العاقل ما أوردته، والله أعلم.

---

(١) في تطور الأندلس العلمي رجعت إلى كتاب «الدراسات الإسلامية» عدد خاص عن المسلمين في الأندلس: ٢٩٣ ـ ٣١٩.

عهود مرت بها الأندلس

هذه نبذة مختصرة عن الوضع السياسي لبلاد الأندلس من الفتح إلى السقوط:

أولاً: عهد الولاة:

وأعني به الولاة المعيّنين من قبل الدولة الأموية على بلاد الأندلس، وهذا العهد يمتد من الفتح الإسلامي حتى دخول عبد الرحمن الداخل للأندلس وتأسيس إمارة مستقلة سنة ١٣٨هـ.

ويمتاز هذا العهد بمحاولة التوسع في الفتوحات والجهاد والإيغال في بلاد فرنسا حتى أن جموع المجاهدين وصلت إلى طولوشة ـ أوتولوز كما تعرف اليوم ـ بل قد وصلت إلى مدينة بواتييه ـ ٢٠٠كم جنوب باريس ـ حيث قدر الله ـ هناك ـ الهزيمة على المسلمين في معركة «**بلاط الشهداء**»، وحرمت هذه الهزيمة أوروبة من نور عظيم كان سيعمها لو قدر الله للمسلمين النصر في تلك المعركة.

ويكفي أن أربعة من ولاة الأندلس استشهدوا في فرنسا وهم: السمح بن مالك الخولاني، وعنبسة بن سحيم الكلبي، وعبد الرحمن الغافقي [قائد معركة بلاط الشهداء]، وعقبة بن الحجاج السلولي.

ثانياً: عهد الإمارة:

ويبدأ بدخول عبد الرحمن الداخل فاراً من العباسيين وإنشائه إمارة

هناك حتى سنة ٣١٦هـ وهي سنة إعلان الخلافة في الأندلس على يد عبد الرحمن الناصر.

ويمتاز هذا العهد بإقامة تنظيمات إدارية وعسكرية متممة للعهد الذي قبله، مع العناية بالثغور والأساطيل، ونمت في هذا العهد العلوم، واتسعت المعارف، وزاد الاهتمام بالكتب والمكتبات، وأصبحت الأندلس في هذا العهد منارة ثقافية في العالم.

ومن معالم هذا العهد المهمة هو قيام عدد من الممالك الإسبانية في شمال الأندلس نتيجة تجمع لفلول المنهزمين أمام المسلمين، وكان لهذه الممالك دور كبير في تقويض الإسلام في الأندلس بعد ذلك، وتلك الممالك الإسبانية هي ليون وقشتالة ونبارة.

ثالثاً: عهد الخلافة:

ويبدأ من إعلان عبد الرحمن الناصر الأندلس خلافةً وذلك سنة ٣١٦هـ حتى سنة ٤٠٠هـ وهو عهد ملوك الطوائف.

وتتشابه كثير من معالم هذا العهد بمعالم عهد الإمارة السابق ويمتاز هذا العهد بكثرة هجوم المجوس الإردمانيين (النورمان) على سواحل الأندلس، وبإنشاء كثير من المساجد العظام وبعض المدن والموانئ، ووصل النشاط العلمي إلى غايته في هذا العهد.

ولقد انتهت هذه الخلافة بموت المستنصر سنة ٣٦٦هـ، وورثته الدولة العامرية التي حكمت الأندلس باسم الخلافة[1].

---

(١) «التاريخ الأندلسي»، ولقد استقيت عهود الأندلس منه بتصرف من ص: ١٣٠ ـ ٥٣٠ تقريباً.

رابعاً: عهد الطوائف:

ويمتد من سنة ٤٠٠هـ إلى سنة ٤٨٤هـ، ولقد «عاشت الأندلس ـ بعد ذهاب الخلافة وانتهاء حكم أسرة بني عامر ـ سنوات صعبة من الفرقة والتنافس، وحاول عدد من المسؤولين المخلصين ـ حتى سنة ٤٢٢هـ ـ استمرار وحدته وإعادة خلافته وبذلوا في ذلك الجهود الكبيرة دون جدوى، فانتابت الأندلس حالة مريعة تبعث على الأسى، عندها يبدأ قيام الطوائف حين تصدَّع بنيان ذلك الصرح الشامخ، وأعلن أهل قرطبة وعلى رأسهم أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور إلغاء الخلافة... وضمت هذه الحكومة عدداً من المدن الأندلسية المتوسطة مثل: جَيّان وبَياسة من شمال قرطبة حتى حدود ولاية غرناطة، بعدها قامت ـ في عدد من مناطق الأندلس ـ ممالك، أو دويلات مستقلة يحكم كلاً منها أمير مستقل عن غيره من الأمراء»[١].

وهذه الدويلات هي طليطلة وبطليوس وغرناطة وقرطبة وإشبيلية وسرقسطة وبلنسية.

خامساً: عهد المرابطين:

ويبدأ من سنة ٤٨٤هـ ـ وهي السنة التي أتم المرابطون فيها خلع ملوك الطوائف الذين كانوا قد استنجدوا بالمرابطين ضد الفرنجة ـ وينتهي بحلول الدولة الموحدية مكان المرابطين سنة ٥٤٠هـ.

---

(١) المصدر السابق: ٣٢٣ ـ ٣٢٤ بتصرف يسير.

ويمتاز عهد المرابطين بكثرة النجدات للأندلس، وبالمعارك الحاسمة القوية لصالح المسلمين كما سأبين، إن شاء الله تعالى، واستمرت الحركة العلمية والفكرية في هذا العهد قويةً إلى حد كبير.

سادساً: عهد الموحدين:

وهم الذين ورثوا المرابطين في الأندلس، علماً بأن مركز المرابطين والموحدين هو المغرب الأقصى، واستمر الموحدون في هذا العهد في الجهاد ضد الفرنجة، وحدثت معارك حاسمة. وهذا العهد يبدأ من سنة ٥٤٠هـ، وينتهي سنة ٦٢٠هـ.

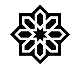
سابعاً: مملكة غرناطة:

وهي التي بقيت تجاهد الصليبيين الإسبان قرابة قرنين ونصف حتى سقطت سنة ٨٩٧هـ، ويمتاز هذا العهد باستنجاد أهل غرناطة ببني مرين حكام المغرب وارثي الموحدين، وحدوث عدة معارك بين المسلمين والصليبيين.

- مراحل انحسار النفوذ السياسي للمسلمين في الأندلس.

المصدر : عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة، دمشق، ١٩٨٥م، ص ٥٠

هذا عرض تاريخي سريع لحال الأندلس خلال ثمانية قرون من الحكم الإسلامي، ولنتكلم الآن عن مقصودنا من هذا البحث، والله الموفق.




سقوط المدن الأندلسية تباعاً وأسباب ذلك

حصل للأندلسيين ضعف شديد وذلة منذ أواسط القرن الخامس، وصاروا يهادنون ملوك إسبانيا الشمالية ويدفعون لهم الجزية، حتى أن المعتمد بن عباد ـ وهو أعظم ملوك الأندلس ـ كان يدفع جزية سنوية إلى الأذفونش[1] ونتج عن هذا الضعف والتفكك سقوط المدن تباعاً في أيدي الصليبيين.

وأما أسباب السقوط فأوجزها بما يلي:

أولاً: تعدد الإمارات وعداوة بعضها لبعض:

كانت مدن الجزيرة الأندلسية درراً منتظمة في سلك واحد، وواسطة العقد الأمير أو الخليفة، ثم انفرط هذا العقد، وصدئت جواهره، فدب الخلاف وعمت العداوة بين أمراء المدن الذين أعلنوها إمارات مستقلة، ولدت ميتة قبل موتها:

«ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها في سلك الانقياد والوفاق، إلى أن طما بمترفيها سيل العناد والنفاق، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مسقط رأسه، وجعله معقلاً يعتصم فيه من المخاوف بأفراسه،

(١) «نفح الطيب» ١٣٥ ـ ١٣٦.

فصار كل منهم يشن الغارة على جاره، ويحاربه في عقر داره، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدو في الدين يعادي، ويراوح معاقلهم بالعَيْث ويغادي[1] حتى لم يبق بأيديهم منها إلا ما هو في ضمان هدنة مقدرة، وإتاوة في كل عام على الكبير والصغير مقررة»[2].

ثانياً: الخلاف:

وهو ما حذر منه تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣] دلالة واضحة على وجوب الاجتماع، وليس أدل على مغبة الاختلاف من عهد الطوائف، الخلاف على السلطة عاقبته وخيمة، حيث تعددت الخلافة وكثرت الممالك وتفرقت الكلمة «وصار في الأندلس عدة ملوك، وصار الأمر في غاية الأُخلوقة، اجتمع في الوقت أربعة يدعون بأمير المؤمنين في رقعة من الأندلس مقدار ما بينهم ثلاثون فرسخاً[3] في مثلها، وغلب على كل قطر متغلب سمى بالمأمون، ومنهم من تسمى بالمعتمد وآخر بالمتوكل حتى قال الحسن بن رشيق:

مما يزهدني في أرض أندلسٍ
سماع معتصم فيها ومعتضد

(١) العيث: الفساد. والرواح والغدو: وقتا الصبح والمساء.
(٢) «موقف الدولة العثمانية»: ١٩ ـ ٢٠ نقلاً عن «نفح الطيب».
(٣) الفرسخ: ثلاثة أميال.

ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد[١]

«فاتحاد السلطان في مثل هذه الأوطان واجب قياساً وسماعاً، وتعدد الخلافة في مثل هذه المسافة غير جائز إجماعاً»[٢].

ثالثاً: المعاصي والترف:

وهذان داءان لا دواء لهما إلا الاستقامة على الشرع، وهذا كان أمراً لا يتوفر لأمراء ذلك الوقت، ولم تزل المعاصي والترف سببين لهلاك الأمم، وما أصدق قول ابن تاشفين حين برر سبب دخوله الأندلس:

«إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم [الإسبان] لما رأينا استيلاءهم على أكثرها وغفلة ملوكهم [أي الأندلسيين] وعمالهم [أي نوابهم] للغزو، وتواكلهم وتخاذلهم، وإيثارهم الراحة، وإنما همة أحدهم كأس يشربها، وقَيْنة [مغنية] تُسمعه، ولهو يقطع به أيامه ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي تملكها الروم في طول هذه الفتنة للمسلمين، ولأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدَّعَة [الراحة] ولا علم عندهم برخاء العيش وإنما هَمُّ أحدهم فرس يروضه ويستنفره، أو سلاح يستجيده، أو صريخ يلبي دعوته»[٣].

---

(١) «نزهة الفضلاء» ٣/ ١٢١١.
(٢) «الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب»: ٤٠ نقلاً عن «جنة الرضا».
(٣) «الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب»: ٣٤ نقلاً عن «المعجب».

يقول مؤرخ مجهول وهو بصدد الحديث عن الفيضان الذي وقع بغرناطة سنة ٨٨٣هـ:

«ومن وقت هذا السيل العظيم بدأ الأمير أبو الحسن [أمير غرناطة] في التقهقر والانتكاس والانتقاص، ذلك أنه اشتغل باللذّات والانهماك في الشهوات، واللهو بالنساء والمطربات وركن إلى الراحة والحفلات»(١).

رابعاً: إهمال أمر الجند:

إذ الجند عماد المعركة وإهمال أمرهم وعدم الاهتمام بتسليحهم وتدريبهم وزيادة عددهم خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين. كيف لا وقد قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولقد قصّر حكام الأندلس في هذا المجال كثيراً، فهذا أبو الحسن أمير غرناطة قد «ضيع الجند، وأسقط كثيراً من نجدة الفرسان... ووزيره يضبط المغارم ويثقلها.. ويجهل كل من فيه نجدة وشجاعة من الفرسان، ويقطع عنهم المعروف والإحسان، حتى باع الجند ثيابهم وخيلهم وآلة حربهم وأكلوا أثمانها، وقتل كثيراً من أهل الرأي والتدبير والرؤساء والشجعان من أهل الأندلس وحصونها»(٢).

وفي معركة العقاب يذكر الذهبي ـ رحمه الله ـ أن أكبر أسباب الهزيمة غضب الجند من تأخر عطائهم(٣).

---

(١) المرجع السابق: ٥٤ نقلاً عن «نبذة العصر».
(٢) المرجع السابق: ٥٤ نقلاً عن «نبذة العصر».
(٣) نزهة الفضلاء: ٣/ ١٥٦٦.

خامساً: تجمع جيوش الكفر على المسلمين:

ففي وقعة العقاب «سار ألفونسو في أقصى الممالك يستنفر عباد الصليب، فاجتمعت له جيوش ما سمع بمثلها، ونجدته فرنج الشام وعساكر قسطنطينية، وملك أرغون البرشلوني»(١).

سادساً: بطء نجدة المسلمين لإخوانهم:

ووصولها بعد سقوط المدينة في بعض الأحيان أو أنها لا تصل على الإطلاق، إذ من يتصور ـ أخي القارئ ـ أن تحاصر طليطلة سبع سنوات كاملة دون أن ينجدها أحد حتى تسقط(٢)، وهذه بلنسية تحاصر عشرين شهراً حتى أكل الناس الفئران والكلاب والجياف ووصل بهم الأمر إلى أن من مات منهم أكلوه، ثم سقطت بعد ذلك(٣).

ثم إن أهل بلنسية استغاثوا بصاحب تونس أبي زكريا ابن أبي حفص ولكنه قدم متأخراً(٤).

ووجه بعد ذلك الأمير يوسف بن تاشفين من فتحها مرة أخرى(٥)، ثم سقطت سقوطها الأخير بعد ذلك.

وهذه سرقسطة تحاصر سبعة شهور، وقيل: تسعة شهور(٦).

وإشبيلية سقطت بعد أعمال حربية استغرقت عدة سنوات وحصار لمدة سنة ونصف(٧).

---

(١) المرجع السابق.
(٢) «نفح الطيب»: ٦/ ١٣١.
(٣) «التاريخ الأندلسي»: ٣٧٣.
(٤) «نفح الطيب»: ٦/ ٢٥١.
(٥) المصدر السابق: ٦/ ٢٤٦.
(٦) التاريخ الأندلسي: ٤٢٨.
(٧) المرجع السابق: ٤٨٢.

كل هذا يحدث ويتقاعس أهل المدن الأخرى عن نصرة المدينة المحاصرة، يقول أبو حيان رحمه الله واصفاً تقاعس الأندلسيين عن نصرة إخوانهم:

«ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم لهاة عن بثهم[(١)]، ما إن يسمع عندنا في مسجد من مساجدنا ومحفل من محافلنا، مذكر بهم أو داع لهم فضلاً عن نافر إليهم أو مواس لهم، حتى كأنهم ليسوا منا، وكأن فتقهم ليس بمفض إلينا، قد بخلنا عليهم بالدعاء بُخلنا بالغَناء، عجائب مغربة فاتت التقدير وعرضت للتغير، ولله عاقبة الأمور وإليه المصير»[(٢)].

وقال ابن العربي رحمه الله:

«ولقد نزل بنا العدو ـ قصمه الله تعالى ـ سنة ٥٢٧، فجاس ديارنا، وأسر جيرتنا، وتوسط بلادنا، فقلت للوالي والمولى عليه: هذا عدو الله قد حصل في الشبكة فلتكن عندكم بركة، ولتكن منكم إلى نصرة الدين المتعينة عليكم حركة، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار فيحاط بهم فإنه هالك لا محالة، فغلبت الذنوب، ورجفت بالمعاصي القلوب، وصار كل أحد من الناس ثعلباً يأوي إلى وِجاره[(٣)] وإن رأى المكيدة بجاره، فإنا لله وإنا إليه راجعون»[(٤)].

---

(١) أي شكواهم وحزنهم.
(٢) «التاريخ الأندلسي»: ٣٦٥.
(٣) جحره.
(٤) «نفح الطيب»: ٦/ ٢٦٧ بتصرف.

سابعاً: مراوغة الإسبان لحكام المسلمين وأخذهم إياهم بالحيلة والخداع والمكر:

وغفلة المسلمين شعوباً وحكاماً عما يراد بهم، «ومن استقرأ التواريخ المنصوصة وأخبار الملوك المقصوصة علم أن النصارى ـ دمرهم الله تعالى ـ لم يدركوا في المسلمين ثاراً. . ولم يخربوا من الجزيرة منازل وديارا، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف، واجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف، وتضريبهم بالمكر والخداع بين ملوك الجزيرة، وتحريشهم بالكيد والخلابة[١] بين حماتها في الفتن المبيرة[٢]. . . ولا أمل للطاغية إلا في. . إعمال الحيلة على المؤمنين وإضمار المكيدة للموحدين، واستبطان الخديعة للمجاهدين، وهو يظهر أنه ساع للوطن في العاقبة الحسنى، وأنه منطو لأهله على المقصد الأسنى، ومهتم بمراعاة أمورهم. وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم، وهو. . يعمل الحيلة في التماس هلاك الوطن وابتغائه، فتباً لعقول تقبل مثل هذا المحال، وتصدق هذا الكذب بوجه أو بحال»[٣].

وانظر أخي القارئ لهذه الحيلة التي احتال فيها الفرنج على أهل بلنسية حيث نزلوا بساحتهم سنة ست وخمسين وأربعمئة «وأهلها جاهلون بالحرب، معرضون عن أمر الطعن والضرب، مقبلون على اللذات من الأكل والشرب، وأظهر الفرنج الندم على منازلتها والضعف عن مقاومة من فيها، وخدعوهم بذلك فانخدعوا،

(١) أي الخداع.
(٢) أي المهلكة.
(٣) «نفح الطيب»: ٦/ ٣٠١ ـ ٣٠٢ بتصرف يسير.

وأطمعوهم فطمعوا، وكمن في عدة أماكن جماعة من الفرسان، وخرج أهل البلد بثياب زينتهم وخرج معهم أميرهم عبد العزيز بن أبي عامر، فاستدرجهم العدو لعنهم الله تعالى ثم عطفوا عليهم فاستأصلوهم بالقتل والأسر، وما نجا إلا من حصنه أجله، وخلص الأمير نفسه»[١].

«وكان طاغية النصارى الملعون لكثرة ما مارس من أمور ملوك الأندلس وسلاطين فاس كثيراً ما يدس لأقارب الملوك القيام على صاحب الأمر، ويزين له الثورة، ويعده بالإمداد بالمال والعدة، وقصده بذلك كله توهين المسلمين وإفساد تدبيرهم، ونسخ الدول بعضها ببعض لما له في ذلك من المصلحة»[٢].

وفي تلك الحوادث المذكورة أعظم العبرة والعظة، فإن المسلمين عندما نسوا الله تبارك وتعالى أنساهم أنفسهم وسلط عليهم أحقر خلقه يسومونهم العذاب، ويطردونهم من ديارهم ويفتنونهم في دينهم، وما أشبه الليلة بالبارحة!

ثامناً: وآخر هذه الأسباب ـ أخي القارئ ـ هو أعظمها وأفتكها وأشدها وهو: **ضعف عقيدة الولاء والبراء[٣] عند كثير من الحكام الأندلسيين:**

وهناك أمثلة تخرج عن حد الحصر ولكني سأورد بعضها مما يُبكي ويُنكي:

---

(١) المصدر السابق: ٦/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٢) المصدر السابق: ٦/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٣) عقيدة الولاء والبراء هي الولاء لله سبحانه وتعالى ولرسوله وللمؤمنين ومحبتهم ومناصرتهم، والبراءة من الكافرين وبغضهم وعداوتهم.

أ ـ أراد ملك طليطلة المأمون أن «يستنجد بالفرنجة على تملك مدائن الأندلس فكاتب طاغيتهم أن تعال في مئة فارس والملتقى في مكان كذا، فسار في مئتين وأقبل الطاغية في ستة آلاف وجعلهم كميناً له، وقال: إذا رأيتمونا قد اجتمعنا فأحيطوا بنا، فلما اجتمع الملكان أحاط بهم الجيش، فندم المأمون وحار، فقال الفرنجي: يا يحيى [وهو اسم المأمون] وحق الإنجيل كنت أظنك عاقلاً، وأنت أحمق، جئت إليّ وسلمت مهجتك بلا عهد ولا عقد فلا نجوت مني حتى تعطيني ما أطلب، قال: فاقتصد، فسمى له حصوناً وقرر عليه مالاً في كل سنة، ورجع ذليلاً مخذولاً، وذلك بما قدمت يداه»[1].

ب ـ وهذا محمد بن يوسف بن هود سلطان الأندلس قام عليه شعيب بن هلالة بـ «لَبْلَة» فاتفق ابن هود مع ألفونسو على «محاصرة لَبْلَة ومعاونته على أن يعطيه قرطبة، واتفقا على ذلك، وقال له: لا يسوغ أن يدخلها الفرنج على البديهة وإنما تهمل أمرها وتخليها من حرس، ووجه أنت الفرنج يتعلقون بأسوارها بالليل ويغدرون بها ففعلوا ذلك. ووجه ابن هود إلى واليه بقرطبة فأعلمه بذلك وأمره بضياعها من حيز الشرقية فجاء الفرنج فوجدوه خالياً فجعلوا السلالم واستولوا على السور، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وكانت قرطبة مدينتين إحداهما الشرقية والأخرى المدينة العظمى، فقامت الصيحة والناس في صلاة الفجر، فركب الجند وقالوا للوالي: اخرج بنا للملتقى فقال: اصبروا حتى يضحي النهار!! فلما أضحى ركب وخرج معهم، فلما أشرف على الفرنج قال: ارجعوا حتى ألبس سلاحي!! فرجع بهم وهم

(١) «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٢٨٢.

يصدقون، وذا أمر قد دبر بليل، فدخل الفرنج على إثرهم وانتشروا، وهرب الناس إلى البلد، وقتل خلق من الشيوخ، والولدان والنسوان، ونهب للناس ما لا يحصى، وانحصرت المدينة العظمى بالخلق فحاصرهم الفرنج شهوراً. وقاتلوهم أشد القتال، وعدم أهلها الأقوات ومات خلق كثير جوعاً، ثم اتفق رأيهم مع أذفونش ـ لعنه الله ـ على أن يسلموها ويخرجوا بأمتعتهم كلها، ففعل ووفى لهم ووصلهم إلى مأمنهم في سنة أربع وثلاثين وستمئة»[١].

هكذا ـ أخي المسلم ـ تباع البلاد لقاء غايات رخيصة وطلباً لمطامع دنيئة حتى فقد الناس الثقة في حكامهم وقادتهم، ويتضح هذا من خلال هذا النص:

«حين استشهد حاكم سَرَقُسطة أبو جعفر أحمد المستعين بالله سنة ٥٠٣ وخلفه ابنه أبو مروان عبد الملك عماد الدولة بايعه الناس بسَرَقُسْطة بعدما اشترطوا عليه ألا يستخدم الروم ولا يتلبس بشيء من أمرهم»[٢].

هذه أسباب سقوط المدن الأندلسية واحدة تلو الأخرى مجملة، إذ لا يتسع المقام للتفصيل ولا يطيقه القلب أيضاً.

---

(١) المصدر السابق: ٣/ ١٥٧٨.

(٢) «التاريخ الأندلسي»: ٤٠١ ـ ٤٠٢ نقلاً عن «البيان المغرب» وغيره.

صور لسقوط بعض المدن الأندلسية

وأما المدن وسقوطها فقد مر بعضه، وسأعرض عدداً من النصوص تبين حال المسلمين عند سقوط هذه المدن والذلة التي أصابتهم:

١ ـ بعد أخذ النصارى ـ لعنهم الله ـ طليطلة شرعوا في تغيير الجامع إلى كنيسة بعد شهرين مع أن نصوص تسليم المدينة قد نُص فيها على «أن يحتفظ المسلمون إلى الأبد بمسجدهم الجامع»، ولما ذهب النصارى إلى الجامع لم يجدوا فيه إلا «الشيخ الأستاذ المغامي آخر من صدر عنه، واعتمده في ذلك اليوم ليتزود منه.. وبين يديه أحد تلامذته يقرأ، فكلما قالوا له: عجل، أشار هو إلى تلميذه بأن أكمل، ثم قام ما طاش ولا تهيب، فسجد به واقترب، وبكي عليه مليّاً وانتحب، والنصارى يعظمون شأنه ويهابون مكانه، لم تمتد إليه يد، ولا عرض له بمكروه أحد»[١].

وقد فطن الشاعر ابن العسال لحقيقة ما يجري فصاح بالأندلسيين:

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس

فما المقام بها إلا من الغلط

(١) «التاريخ الأندلسي»: ٣٣٤ نقلاً عن «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» وغيرها.

السلك ينثر من أطرافه وأرى
سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن بوائقه
كيف الحياة مع الحيات في سفط[١]

وهي دعوة لا تخلو من اليأس والقنوط من انصلاح الحال.

٢ ـ وبعد سقوط بَرْبَشْتْرُ قدر عدد الأسرى والقتلى ما بين خمسين إلى مئة ألف شخص، «وحصل للعدو من الأموال والأمتعة ما لا يحصى، حتى إن الذي خص بعض مقدمي العدو وهو قائد خيل رومة نحو ألف وخمسمئة جارية أبكاراً، ومن أوقار[٢] الأمتعة والحلي والكسوة خمسمئة جمل، واقتسم الفرنجة الناس وأخذ كل واحد منهم داراً بمن فيها من أهلها، وكان الفرنج ـ لعنهم الله تعالى ـ يفتضون البكر بحضرة أبيها، والثيب بعين زوجها وأهلها، وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان، ومن لم يرض منهم أن يفعل ذلك في خادم أو ذات مهنة أعطاهن خدمه وغلمانه يعيثون فيهن عَيْثة، وبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة، ولما عزم ملك الروم على القفول إلى بلده تخير من بنات المسلمين الجواري الأبكار والثيبات ذوات الجمال ومن صبيانهم الحسان ألوفاً عدة حملهم معه ليهديهم إلى من هم فوقه»[٣].

---

(١) وعاء.

(٢) أحمال.

(٣) «نفح الطيب»: ٦/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠ بتصرف.

وأورد أبو حيان ـ رحمه الله تعالى ـ قصة تبكي القارئ وتذهل العاقل وحاصلها أن تاجراً من تجار اليهود جاء إلى بَرْبَشْتْرُ ليفتدي بعض بنات ذوي الوجوه المسلمين ممن نجين من الحادثة، وكانت تلك البنات قد وقعن في سهم رجل من النصارى يعرفه، فقال:

«فهُديت إلى منزله فيها، واستأذنت عليه فوجدته جالساً مكان رب الدار، مستوياً على فراشه، رافلاً في نفيس ثيابه والمجلس والسرير كما خلفهما ربهما يوم محنته لم يغير شيئاً من رياشهما وزينتهما، ووصائفه مضمومات الشعور، قائمات على رأسه، ساعيات في خدمته، فرحب بي وسألني عن قصدي. . فأشرت إلى وفور ما أبذله في بعض اللواتي على رأسه وفيهن كانت حاجتي، فتبسم وقال بلسانه: ما أسرع ما طمعت فيما عرضناه لك، اعرض عمن هنا وتعرض لمن شئت ممن صيرته لحصني من سبيي وأسراي أُقارِبْك فيمن شئتَ منهن.

فقلت له: أما الدخول إلى الحصن فلا رأي لي فيه، وبقربك أنست، وفي كنفك اطمأننت، فسُمْني ببعض من هنا فإني أصير إلى رغبتك.

فقال: وما عندك؟ قلت: العين الكثير[1] الطيب، والبَزّ الرفيع الغريب، فقال: كأنك تشهيني ما ليس عندي، يا مَجّة، ينادي بعض أولئك الوصائف، يريد «يا بهجة» فغيره بعجمته، قومي فاعرضي عليه ما في ذلك الصندوق فقامت إليه وأقبلت بِبَدَر[2] الدنانير وأكياس

(١) أي الذهب.
(٢) أوعية.

الدراهم وأسفاط[١] الحلي، فكُشف وجُعل بين يدي العلج[٢] حتى كادت تواري شخصه، ثم قال لها: أدني إلينا من تلك التخوت، فأدنت منه عدة من قطع الوشي والخز والديباج الفاخر مما حار له ناظري وبهت، واسترذلت ما عندي.

ثم قال لي: لقد كثر هذا عندي حتى ما ألذ به، ثم حلف بإلهه أنه لو لم يكن عنده شيء من هذا ثم بذل له بأجمعه في ثمن تلك ما سخت بها يداه، فهي ابنة صاحب المنزل، وله حسب في قومه، اصطفيتها لمزيد جمالها لولادتي حسبما كان قومها يصنعون بنسائنا نحن أيام دولتهم وقد رُدّ لنا الكرة عليهم فصرنا فيما تراه، وأزيدك بأن تلك الخودة الناعمة[٣] وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية أخرى مغنية والدها التي كانت تشدو له على نشواته إلى أن أيقظناه من نوماته، يا فلانة، يناديها بلكنته، خذي عودك فغني زائرنا بشجوك.

قال: فأخذتِ العود، وقعدت تسويه وإني لأتأمل دمعها يقطر على خدها، فتسارق العلج مسحه واندفعت تغني بشعر ما فهمته أنا فضلاً عن العلج، فصار من الغريب أن أظهر الطرب منه، فلما يئست مما عنده قمت منطلقاً عنه، وارتدت لتجارتي سواه، واطلعت لكثرة ما لدى القوم من السبي والمغنم على ما طال عجبي به»[٤].

---

(١) أوعية.

(٢) النصراني الكافر.

(٣) أي الفتاة الشابة الناعمة.

(٤) «نفح الطيب»: ٦/ ٢٤٠ ـ ٢٤٢ بتصرف.

وكفى بهذه القصة دليلاً على ما أصاب المسلمين من الذل، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

يا غافلاً وله في الدهر موعظة
إن كنت في سِنة فالدهر يقظان[١]
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه
أبعد حمص تغر المرء أوطان[٢]
تلك المصيبة أنست ما تقدمها
وما لها مع طول الدهر نسيان
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة
كأنها في مجال السبق عقبان[٣]
وحاملين سيوف الهند مرهفةً
كأنها في ظلام النقع نيران[٤]
وراتعين وراء البحر في دَعَة[٥]
لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأٌ من أهل أندلسٍ
فقد سرى بحديث القوم ركبان

(١) السِّنة: النوم.
(٢) حمص هي: إشبيلية سميت بذلك لشبهها بحمص.
(٣) جمع عقاب وهو طائر معروف.
(٤) النقع: الغبار.
(٥) راحة.

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم
وأنتم يا عباد الله إخوان
ألا نفوسٌ أبيِّاتٌ لها همم
أما على الخير أنصار وأعوانُ
يا من لذلة قوم بعد عزهم
أحال حالهمُ كفر وطغيانُ
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم
واليوم هم في بلاد الكفر عبدانُ
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
عليهمُ من ثياب الذل ألوانُ
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم
لهالك الأمر واستهوتك أحزانُ
يا رُبَّ أمٍ وطفلٍ حِيل بينهما
كما تفرق أرواح وأبدانُ
وطفلةٍ مثل حسن الشمس إذ طلعت
كأنما هي ياقوت ومرجانُ
يقودها العلج للمكروه مكرهة
والعين باكية والقلب حيرانُ

لـمـثـل هـذا يـذوب الـقـلـب مـن كـمـد
إن كـان فـي الـقـلـب إسـلام وإيـمـان[١]

ج ـ وبعد سقوط غرناطة يحدثنا التاريخ عن هذا المشهد: «صعد الكردنال إلى أحد الأبراج بالقصر [قصر الحمراء] ونصب فوقه صليباً كبيراً من فضة ولواء الملكية المسيحية.. وما إن أبصرت الملكة الصليب منصوباً فوق قصر الحمراء حتى انحنت نحو الأرض واقفة على ركبتيها وهي تصلي وتوجه الشكر إلى ربها، أثار المشهد الحماس في نفوس أعضاء حاشيتها فعكفوا يرتلون الأناشيد الدينية. عند ذلك بدأ فيرديناند وبعض علية القوم وأعيانهم، يزحفون نحو غرناطة، ولما دخلوا تقدم نحوه أبو عبد الله [ملك غرناطة] ممتطياً جواده ولما دنا من فرناندو تهيأ للنزول عن صهوته ليقدم التحية إلى الملك النصراني لكن هذا الأخير أومأ إليه ألا يفعل، شفقة عليه، فقبّل أبو عبد الله ـ مع ذلك ـ ذراع فيرديناند اليمنىٰ وقدم إليه مفاتيح القصر»[٢].

وهذا الذل الذي قبل به أبو عبد الله الصغير كان رجاء أن يوفي النصارى بوعودهم للمسلمين بالحفاظ على شعائر الإسلام وحرية التدين، فماذا حدث بعد هذه الذلة وهذا التنازل للنصارى؟.

لا تسأل بعد ذلك عما حدث من الملكين فرديناد وإيزابيلا من نكث الوعود وإحراق كتب المسلمين[٣] لإزهاق الحضارة الإسلامية، ومن

---

(١) من قصيدة لأبي البقاء الرندي يرثي فيها الأندلس، وطالعها كاملة في «نفح الطيب»: ٦/ ٢٧٩ ـ ٢٨١.
(٢) «الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب»: ٥٥ نقلاً عن «محنة العرب في الأندلس».
(٣) «جُمع ما يقارب مليون كتاب مخطوط من المكتبات العامة والمكتبات الخاصة وأحرقت بأمر أحد الكرادلة السفلة في ميدان غرناطة، وكان هذا العدد من الكتب =

فرض التعميد على الأطفال، ومن منع أداء شعائر الإسلام، ومن منع التسمي بأسماء عربية، ومن منع الختان، ومن منع التحدث بالعربية. . . إلخ.

«ثم بعد ذلك دعاهم [أي ملك غرناطة النصراني] إلى التنصير وأكرههم عليه وذلك في سنة أربع وتسعمئة فدخلوا في دينه كرهاً، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق من يقول فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله جهراً إلا من يقولها في قلبه أو خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وكم فيها من قلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعدومين، ومن لم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتعل ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً مدراراً، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويأكلون الخنزير ويشربون الخمر. . فلا يقدرون على منعهم. . ومن فعل ذلك عوقب أشد العقاب، فيا لها من فجعة ما أمرّها ومصيبة ما أعظمها»(١).

وسُمي المسلمون الباقون بالأندلس بالمدجنين، وبعد فرض التعميد على المسلمين سُمُّوا: «موريسكيين» ومعناه المسلمون الداخلون في النصرانية حديثاً، وحتى هؤلاء الذين دخلوا في النصرانية ظاهراً تحت الضغط لم يسلموا من الإجراءات المتعسفة التي يقوم بها ضدهم

= يفوق كافة الكتب الموجودة في مكتبات أوروبة بكاملها، بل لم تكن في أوروبة آن ذاك مكتبة واحدة تمكنت من جمع عشرة آلاف مجلد».

«موقف الدولة العثمانية»: ٤٠، نقلاً عن «تاريخ الدول العثمانية» لمؤلفه يلماز أوزوتا.

(١) «الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب»: ٥٦ ـ ٥٧ بتصرف يسير.

الرهبان والأساقفة وتساعدهم الحكومة، وأقاموا لهم محاكم تفتيش ألزمتهم بقرارات تفوح منها الذلة والصغار، ولقد حاول المسلمون مراراً أن يثوروا وقاموا فعلاً بثورات ولكنها أُخْمدت كلها نتيجة عوامل متعددة يضيق المقام عن ذكرها.

ولم تُجْدِ كل الإجراءات التعسفية التي قام بها الصليبيون ضد المسلمين، واستقر الأمر على إخراج المسلمين إلى أرض المغرب، وكان هذا في أوائل القرن السابع عشر الميلادي، وفرح المسلمون بهذا الفرج الذي طالما دعوا الله تعالى أن ينالوه، بينما رفض قسم منهم الخروج وثاروا على الإسبان ولكن الإسبان استطاعوا أن يستوعبوا ثورتهم[1].




(١) «الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب»: ١٢٥ ـ ١٢٦ بتصرف.

محاولات إصلاحية

قد يسأل سائل: ألم يكن هناك دعاة لدين الله تعالى يحذرون الحكام المسلمين من الخلاف وينبهونهم إلى ما سيحل بهم من العقاب؟ وهذا سؤال في محله، والجواب: بلى كان هناك دعاة إلى الاجتماع والاتحاد ولكن الحكام لم يكونوا متعاطفين مع تلك الدعوة لأن معناها التنازل عما هم فيه من الترف والنعيم والتسليم لخليفة واحد لا يرضونه ولا يريدون حكمه، هذا مع ما جبلت عليه نفوسهم من حب المعاصي والخيانة وتذبذب الولاء والبراء كما بينت سابقاً.

وفي تاريخنا الإسلامي مثل مضيء لداعية من الدعاة لم يعجبه موقف الحكام الأندلسيين من سكوتهم على الخطر المنذر بالنهاية فـ «رفع صوته بالاحتساب، ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبتَّ[1] من تلك الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون لو صادف أسماعاً واعية، بل نفخ في عظام ناخرة، وعطف على أطلال دائرة، بيد[2] أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب، وأجزل حظه في التأنس والتقريب، وهو في الباطن يستجهل نزعته،

---

(١) انبت: انقطع.

(٢) بالرغم من.

ويستثقل طلعته، وما كان أفطن الفقيه رحمه الله بأمورهم، وأعلمه بتدبيرهم، لكنه كان يرجو حالاً تثوب[(١)] ومذنباً يتوب»[(٢)].

كان هذا الفقيه هو أبا الوليد الباجي رحمه الله تعالى، ولكنه كما قال المقري: «لم يفد شيئاً، فالله تعالى يجازيه عن نيته»[(٣)]، واستمر رحمه الله تعالى في دعوته تلك ثلاث عشرة سنة حتى «توفي بالمرية سنة ٤٧٤.. وكان جاء إلى المرية سفيراً بين رؤساء الأندلس يؤلفهم على نصرة الإسلام ويروم جمع كلمتهم مع جنود ملك المغرب المرابطين على ذلك فتوفي قبل تمام غرضه رحمه الله»[(٤)].

ولم يكن في الساحة وحده رحمه الله تعالى بل كان معه نجوم هو شمسهم منهم أبو حيان، وأبو الحزم جهور بن محمد بن جهور، وابن حزم، والإلبيري، والعسال الطليطلي، وابن عبد البر، كل هؤلاء شاركوا في جهود الإنقاذ والدعوة إلى الاتحاد والحذر من الخطر القائم، شاركوا بشعرهم وكتابتهم ودروسهم[(٥)].

---

(١) أي ترجع.
(٢) «التاريخ الأندلسي»: ٣٣٩ نقلاً عن «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة».
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق: ٣٤٣ نقلاً عن «ترتيب المدارك».
(٥) انظر المرجع السابق: ٣٤٤ ـ ٣٤٧.

نداءات الاستغاثة

المسلمون مثل الجسد الواحد، وما يتضرر منه عضو يئن له آخر، هذه حقيقة ناصعة في تاريخ هذا الدين، ولقد عرف المسلمون الأندلسيون هذه الحقيقة واستوعبوها وكثر منهم الاستنجاد بإخوانهم المسلمين لنصرتهم، وكان المسلمون يستجيبون في معظم الأحيان كما سترى أخي القارئ، إن شاء الله تعالى، وكانت هذه الاستجابة تتمثل في أشكال رائعة من التلاحم والتعاطف الأخوي الفريد من نوعه والذي اشتهرت به أمة الإسلام.

ولكي يحصل التركيز في دراسة وعرض تلك الاستغاثات وردود الفعل عليها قسمت نداءات الاستغاثة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

الاستغاثة بأهل المغرب الأوسط والأقصى.

القسم الثاني:

الاستغاثة بالمماليك سلاطين مصر والشام والحجاز.

القسم الثالث:

الاستغاثة بسلاطين بني عثمان.

القسم الأول

الاستغاثة بأهل المغرب الأوسط والأقصى

كان حكام المغرب قد تلقوا عدة استغاثات من الأندلسيين فكانوا إزاءها ثلاثة أصناف:

صنف من الحكام استغيث بهم فضربوا أروع الأمثلة في الاستجابة، وصنف آخر لم يتمكنوا من الاستجابة لظروفهم الداخلية، وصنف خانوا من استغاث بهم ودلوا الصليبيين عليهم، وهذا القسم هو القليل النادر، والحمد لله.

وأما الصنف الأول فسأنتقي منه ما يلي:

أولاً: استغاثة أهل المغرب بالسلطان المرابطي يوسف بن تاشفين، وكانت استجابة السلطان مثلاً رائعاً للأخوة الإسلامية.

يقول المقري: «وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين، مجهشين بالبكاء، ناشدين بالله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته، فيسمع إليهم ويصغي لقولهم وترق نفسه لهم»[١].

(١) «نفح الطيب»: ٦/ ١٣٩.

وذكر المقري أن الأذفونش [ألفونسو] لما ملك طليطلة أرسل إليه المعتمد الضريبة [الجزية] المعتادة فلم يقبلها منه، وأرسل إليه يتهدده بأن يسلمه جميع الحصون المنيعة، وأمعن في التجني وسأل في دخول امرأته إلى جامع قرطبة لتلد فيه، إذ كانت حاملاً، لما أشار عليه القسيسون والأساقفة بذلك لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم عمل عليها المسلمون الجامع الأعظم، وكان السفير في ذلك يهودياً فامتنع ابن عباد فراجعه اليهودي في ذلك وأغلظ في القول وواجهه بما لم يحتمله ابن عباد، فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودي فأنزل دماغه في حلقه، وأمر به فصلب منكوساً بقرطبة.

وبلغ الأذفونش ما صنع ابن عباد فأقسم بآلهته ليغزونه بإشبيلية، وكتب إليه مهدداً: كثر بطول مقامي في مجلسي الذباب، واشتد علي الحر فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي وأطرد الذباب عن وجهي، فرد عليه ابن عباد: قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مروحة من الجلود اللمطية[١] تروح منك لا تروح عليك إن شاء الله تعالى، فلما وصلت الأذفونش رسالة ابن عباد وقرئت عليه أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال.

وفشا في الأندلس ما أظهره ابن عباد من العزيمة على جواز يوسف بن تاشفين والاستظهار به على العدو، فاستبشر الناس وفرحوا بذلك وفتحت لهم أبواب الآمال، وأما ملوك الطوائف فقد اهتموا منه، ومنهم من كاتبه ومنهم من كلمه مواجهة وحذروه عاقبة ذلك،

---

(١) يشير ابن عبّاد إلى المرابطين.

فأجابهم ابن عباد بكلمته التي أصبحت مثلاً: رَعْيُ الجمال خير من رعي الخنازير، أي أن كونه أسيراً لابن تاشفين يرعى جماله في الصحراء خير من كونه أسيراً للأذفونش يرعى خنازيره في قشتالة(١).

وما إن أرسل المعتمد رسوله إلى ابن تاشفين حتى أمر في الحال بعبور العساكر إلى الأندلس واجتمع بابن عباد في إشبيلية، وكتب إليه الأذفونش كتاباً يغلظ له في القول فكتب ابن تاشفين جواباً مختصراً على ظهر كتاب الأذفونش: «الذي يكون ستراه»، فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع له، وعلم أنه بُلي برجل لا طاقة له به(٢).

«ثم التقى الجمعان واصطدم الجبلان بـ «الزلّاقة» فانهزم الكلب واستؤصل جمعه وقل من نجا، في رمضان سنة ٤٧٩، وجرح المعتمد في بدنه ووجهه، وشهد له بالشجاعة والإقدام، وغنم المسلمون ما لا يوصف»(٣).

ومن نتائج معركة الزلاقة هذه أن سقوط الأندلس قد تأخر أربعة قرون أخرى.

ثانياً: استنجاد المسلمين بالسلطان أبي الحسن المريني صاحب فاس وأولاده:

وقد كان أمراء الأندلس يكتبون لهم على لسان الأديب ابن الخطيب فكان مما استنجدوا به عدة رسائل طويلة أختار منها ما يلي:

«وإذا تداعت أمم الكفر نصرةً لدينها المكذوب، وحمية لصليبها

(١) أرأيت أخي القارئ كيف يكون الولاء والبراء.
(٢) «نفح الطيب»: ٦/ ١٣٦ ـ ١٤١ بتصرف كثير.
(٣) «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٣٣٣.

المنصوب، فمن يُستدعى لنصر دين الله وحفظ أمانة نبيّه إلا أهل ذلك الوطن. . . إنما الإسلام غريق قد تشبّث بأهدابكم يناشدكم الله في بقية الرَّمَق. . وهذا أوان الاعتناء واختيار الحماة وإعداد الأقوات قبل أن يضيق المجال وتمنع الموانع، وقد وجهنا هذا الوفد المبارك للحضور بين يديكم. . مذكراً بما يقرب عند الله. . جالباً على من وراءهم بحول الله تعالى من المسلمين البشرى التي تشرح الصدور. . فالمؤمن كثير بأخيه، ويد الله مع الجماعة، والمسلمون يدٌ على من سواهم، والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، والتعاون على البّر والتقوى مشروع، وفي الذكر الحكيم مذكور، وحق الجار مشهور. . »[١].

وقال في رسالة أخرى:

«كأن الدين غير واحد، كأن هذا القطر لكلمة الإسلام جاحد. . كأن الله غير راء ولا سامع، فنحن نسألكم بالله الذي تساءلون به والأرحام، ونأسف من كل هذا الإحجام. . »[٢].

وقال في رسالة أخرى:

«وإن تشوّفتم إلى أحوال هذا القطر ومن به من المسلمين. . فاعلموا أننا في هذه الأيام ندافع من العدو تياراً، ونكابد بحراً زخاراً، ونتوقع ـ إلا إن وقى الله تعالى ـ خطوباً كباراً. . »[٣].

وقال في رسالة أخرى:

---

(١) «نفح الطيب»: ٦/ ١٩٤.
(٢) المصدر السابق: ٦/ ١٩٩ ـ ٢٠٠.
(٣) المصدر السابق: ٦/ ٢٣٣.

«الذي يوجب نصح الإسلام، ورَعْيَ الجوار والذّمام إيقاظكم من مراقدكم المستغرقة، وجمع أهوائكم المتفرقة، وتهييئكم إلى مصادمة الشدائد المُرعدة المُبرقة، وهو أن كبير دين النصرانية الذي إليه ينقادون، وفي مرضاته يصادقون ويعادون، وعند رؤية صليبه يكبرون ويسجدون، لمّا رأى الفتن قد أكلتهم... أعمل نظره فيما يجمع منهم ما افترق فرمى الإسلام بأمة عددها القَطر المنثال[١]، وأمرهم، وشأنهم الامتثال، أن يُدمنوا لِما ارتضاه من أمته الطاعة، ويجمعوا في ملته الجماعة، ويَطْلع الكل على هذه الفئة القليلة الغريبة بغتة كقيام الساعة، وأقطعهم ـ قطع الله تعالى بهم ـ العباد والبلاد وسوّغهم الحريم والأولاد، وبالله تعالى نستدفع ما لا نطيقه، ومنه نسأل عادة الفرج فما سُدَّت طريقه، إلّا أنّا رأينا غفلة الناس مؤذنة بالبوار، وأشفقنا للدين المنقطع من وراء البحار، وقد أصبح مضغة الكفار، وأردنا أن نهزكم بالموعظة التي تكحل البصائر بميل الاستبصار فإن جبر الله تعالى الخواطر بالضراعة إليه والانكسار، ونسخ الإعسار بالإيسار، وأنجد اليمين بأختها اليسار، وإلا فقد تعيّن في الدنيا والآخرة حظ الخسار، فإن من ظهر عليه عدو دين الله تعالى وهو من الله مصروف، وبالباطل مشغوف.. وعلى الحطام المسلوب عنه ملهوف فقد تلّه[٢] الشيطان للجبين، وقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، ومَن... أفرد بالعبوديّة وجه الواحد الأحد المعبود، ووطّن النفس على الشهادة المبوِّئة دار الخلود، العائدة بالحياة الدائمة والوجود، أو الظهور على

(١) أي المطر المتتابع.
(٢) أي ألقاه على وجهه.

عدوه المحشور إليه المحشود، صبراً على المقام المحمود، وبَيْعاً من الله تكون الملائكة فيه الشهود. . كان على أمريه بالخيار المودود ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾. . . الآية»[(١)].

ولقد استجاب السلطان أبو الحسن المُريني وأهله وشعبه استجابة طيبة وليس أدل على ذلك من هذا النص:

«وكان مجتهداً في الجهاد بنفسه وحُرَمه، وجاز للأندلس برسم ذلك[(٢)] بنفسه، وأظهر آثاره الجميلة، ومنها ارتجاع جبل الفتح ليد المسلمين بعد أن أنفق عليه الأموال، وصرف إليه الجنود والحشود. . ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه وضيقوا به إلى أن استرجعوه ليد المسلمين. . »[(٣)].

ثالثاً: استغاثة أهل بلَنَسْية بصاحب إفريقية [تونس] أبي زكريّا بن أبي حفص:

إذ أنهم قد أرسلوا إليه الكاتب الشهير ابن الأبّار القضاعي فأنشده هذه القصيدة التي سأورد بعضها:

أدْرِك بخيلك خيلِ الله أندلساً
إن السبيل إلى منجاتها دَرَسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست
فلم يزل منك عز النصر مُلتمَسا

(١) «نفح الطيب»: ٦/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥ بتصرف.
(٢) أي لغرض الجهاد.
(٣) المصدر السابق: ٦/ ١٨٧ ـ ١٨٨.

تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم
إلا عقائلها المحجوبة الأنسا[١]
وفي بَلَنْسِيَة منها وقرطبة
ما ينسف النفس أو ما ينزف النَّفَسا
مدائن حَلّها الإشراك مبتسماً
جَذْلانَ[٢] وارتحل الإيمان مبتئساً
يا لَلمساجد عادت للعدا بيَعاً
وللنداء غدا أثناءها جرساً
سرعان ما عاث جيش الكفر واحربَا
عيث الدَّبَى[٣] في مغانيها التي كبسا
محا محاسنَها طاغ أتيح لها
ما نام عن هضمها حيناً ولا نَعِسا
وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً
ولو رأى راية التوحيد ما نبسا
صل حبلها أيها المولى الرحيم فما
أبقى المراس لها حبلاً ولا مرسا

وهي قصيدة جميلة طويلة:

---

(١) أي نساءها المتحجبات.
(٢) فرحان.
(٣) الدَّبَى: الجراد.

«فبادر السلطان لإعانتهم وشحن الأساطيل بالمدد إليهم فوجدوهم في هوة الحصار»[(١)].

رابعاً: وقعة الأرَك:

وذلك أن ألفونسو كان قد عقد معاهدة مع المسلمين، فلما انقضت المدة بعث إلى جميع ثغور المسلمين المجاورة له لينذرهم ويحذرهم، فعلم بذلك سلطان الموحدين أبو يوسف يعقوب المنصور «فتجهز لقصدهم في جيوش موفّرة وعساكر. . وجاز إلى الأندلس سنة ٥٩١هـ فعلم به الإفرنج فجمعوا جمعاً كثيراً من أقاصي بلادهم وأدانيها وأقبلوا نحوه»[(٢)]، وكان جيش النصارى كثيفاً «ينيف على خمسة وعشرين ألف فارس ومئتي ألف راجل، وكان معه جماعات من تجار اليهود قد وصلوا لاشتراء أسرى المسلمين وأسلابهم وأعدوا أموالاً»[(٣)].

«فلمّا تراءى الجمعان اشتد خوف الموحدين وساءت ظنونهم لِما رأوا من كثرة عدوهم، وأمير المؤمنين في ذلك كله لا مستند له إلا الدعاء، والاستعانة بكل من يظن عنده خيراً من الصالحين»[(٤)].

وخاطب القائد العام الجند وأبلغهم بأنه «يقول لكم أمير المؤمنين اغفروا له، فإن هذا موضع غفران، وتغافروا فيما بينكم، وطيبوا نفوسكم وأخلصوا لله نياتكم. فبكى الناس وأعظموا ما سمعوه من سلطانهم وما جرى إليهم من حسن معاملته».

---

(١) «نفح الطيب»: ٦/ ٢٤٧ ـ ٢٥١.
(٢) المصدر السابق: ٦/ ١٦٢.
(٣) «التاريخ الأندلسيّ»: ٤٨٦ نقلاً عن «بغية الملتمس».
(٤) المرجع السابق: نقلاً عن «المعجب».

«ثم قام الخطيب وحرّض على الجهاد وفضله والتنبيه على مكانه وقدره، ومدّ القول في ذلك بما وسعه من بيانه، وانفض الناس وقد تنورّت بصائرهم، وخلصت لله ضمائرهم وسرائرهم، وقويت أنفسهم واعتزامهم، وتضاعفت نجدتهم وإقدامهم»[(١)].

وأما القَشْتاليون فقد «هبطوا من مركزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر، وأسراباً تتلو أسراباً، وأمواجاً تعقب أمواجاً، ليس إلا الصهيل والضجيج والحديد. . فمالوا على الميسرة فتزحزح قوم المطوعة وأخلاط من السوقة والرجرجة، فصعد غبارها إلى الجو، فقال المنصور لخاصته ومن طاف به: جددوا نياتكم وأحضروا قلوبكم، ثم تحرك وحده. . وسار منفرداً من خاصته مقدماً بشهامته ونجدته، ومر على الصفوف والقبائل وألقى إليهم بنفسه كلاماً وجيزاً في الهجوم على عدوهم والنفود إليه، وعاد إلى موضعه»[(٢)] وكتب الله سبحانه وتعالى النصر على الكافرين في يوم واحد، ومَنح المسلمين أكتافهم، والحمد لله.

وأما الصنف الثاني فهو نداءات الاستغاثة التي لم يستجب لها الحكام فهي قليلة ولكنها مؤثرة

وهي غالباً في العهد الأخير قبل سقوط غرناطة بقليل، يقول مؤرخ أندلسي مجهول:

«إن إخواننا المسلمين من أهل عُدوة المغرب بعثنا إليهم فلم يأتنا أحد منهم، ولا عرج على نصرتنا وإغاثتنا، وعدونا قد بنى علينا

(١) المرجع السابق: نقلاً عن «البيان المُغرب».
(٢) المرجع السابق: ٤٨٧ نقلاً عن «البيان المغرب».

وسكن [أي حال المحاصرة] وهو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفاً، والمدد يأتيه من بلاده ونحن لا مدد لنا»[١].

ويقول المقرّي: «ولما قصد ملوك الإفرنج السبعة في المئة الثامنة غرناطة ليأخذوها اتفق أهلها على أن يبعثوا لصاحب الغرب من بني مرين يستنجدوه وعينوا للرسالة الشيخ أبا إسحاق بن أبي العاصي والشيخ أبا عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي.. ثم بعد سفرهم نازل الإفرنج غرناطة بخمسة وثلاثين ألف فارس ونحو مئة ألف راجل مقاتل، ولم يوافقهم سلطان المغرب، فقضى الله تعالى ببركة المشايخ الثلاثة أن كُسر النصارى في الساعة التي كسر خواطرهم فيها صاحب المغرب»[٢].

ولعل ملوك المغرب لم يستجيبوا لبعض الاستغاثات نتيجة للمجاعة الهائلة التي طرقت المغرب في تلك الفترة، والله أعلم[٣].

وأما الصنف الثالث: وهو خيانة بعض ملوك المغرب لهم، فهو الطامة الكبرى وإن كان نزراً يسيراً، فقد استغاث الموريسيكيون[٤] بالمأمون وذلك «أن المسلمين لما كانوا في بلاد النصارى أعلمه رئيسهم[٥] بأن جلهم في الجيش، وأنهم مستعدون، وأنهم أقوام كثيرون نحو ثمانية آلاف رجل يقومون على النصارى ويستندون في قيامهم عليهم ظناً منهم أنه مسلم ينصر المسلمين ويعينهم، ففضح

(١) «الدراسات الإسلامية»: ٤٩.
(٢) «نفح الطيب» ٦/ ٣٠٥ بتصرف يسير.
(٣) «الدراسات الإسلامية»: ٤٩ ـ ٥٠.
(٤) من أظهر التنصر في الأندلس.
(٥) أي أعلم رئيس المسلمين المأمون.

بسرهم عند سلطان النصارى وأراد أن يحرق جموعاً منهم، فتشفع فيهم لأجل صداقته له واستشار فيهم فأشار عليه أن يخرجهم من أرضه فكان الأمر كذلك»[١].

وأما خيانته الثانية فكانت تسليم مدينة العرائش المغربية إلى الإسبان سنة ١٦١٠ مقابل ٢٠٠ ألف دوكا، وقد كانت مرفأ بحرياً مهماً لعمليات الجهاد البحري الذي كان يقوم به الموريسيكيون ضد النصارى، بالإضافة إلى أنها كانت ملجأ لعدد من الموريسكيين الذين قرروا الاستقرار بالمنطقة[٢].

«ووصل به الأمر في الأخير إلى أن أسرى المسلمين كانوا يفرون من طنجة [وقد كانت بيد النصارى] فيعيدهم إليها»[٣]، وكانت عاقبة أمره خسراً فقد قتله مجاهدو تطوان سنة ١٦١٣م، ١٠٢٢هـ[٤].

(١) «الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب»: ١٢٢.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق.

القسم الثاني

استغاثات الأندلسيين بالمماليك ملوك مصر والشام والحجاز

وصلت رسالة السلطان أبي الحسن المريني إلى سلطان المماليك في مصر يصف له فيها ما حدث بالأندلس كانت هذه الرسالة سنة ٧٤٥ فاعتذر صاحب مصر عن المساعدة المادية قائلاً:

«وأما ما وصفتموه من أمر الجزيرة الخضراء وما لاقاه أهلها.. فإنه شق علينا سماعه الذي أنكى أهل الإيمان.. ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطاول؟ وأين الثريا من يد المتناول؟ وما لنا غير إمدادكم بجنود الدعاء الذي نرفعه نحن ورعايانا، والتوجه الصادق الذي تعرفه ملائكة القبول من سجايانا»(١).

وهذه استغاثة أخرى من الأندلسيين جرت بين أحد سفرائهم والسلطان المملوكي «الظاهر جُقْمق»، هذا نصها:

«يا مولانا: نصركم الله، هذا كتاب من صاحب جزيرة الأندلس يشتكي لك ما أصابه من الإفرنج المجاورين له، ويطلب منك نجدة تعينه بها.

---

(١) «نفح الطيب»: ٦/ ١٧٩ ـ ١٨٠ بتصرف.

ـ سأبعث إلى ابن عثمان [أي السلطان العثماني] يعينكم إن شاء الله.

ـ يا مولانا السلطان نصركم الله، أنت هو كبير الملوك والسلاطين، وخديم الحرمين الشريفين، ولم نجئ إلا إلى حضرتكم، وحاشاك أن تردنا خائبين.

ـ إن بلادكم بعيدة، ولا يمكننا أن نجهز لكم عسكراً.

ـ إذا لم يمكنكم تجهيز العسكر إلينا فلتُعنا بالمال والعدة، وما كان لله فهو يحفظه.

ـ نعم، أعينكم إن شاء الله بالمال والعدة»[١].

من هذه المحاورة يتضح لنا صعوبة نجدة المماليك للأندلسيين وسبب ذلك.

وحاول بعد ذلك السلطان المملوكي الأشرف أن ينجد أهل غرناطة، ووقع اتفاقاً مع سلطان العثمانيين بايزيد يقضي بأن يرسل السلطان بايزيد أسطولاً على سواحل صقلية باعتبارها تابعة لمملكة إسبانيا، وأن يجهز السلطان المملوكي حملات أخرى من ناحية إفريقية[٢].

وقد بعث الملك الأشرف بوفود إلى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بالحرية، في حين أن أبناء دينه في المدن الإسبانية يعانون أشد أنواع الظلم، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه الرعايا النصارى إذ لم يكف ملك

(١) «موقف الدولة العثمانية»: ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) «جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس» ١٣٤.

قشتالة وأراغون عن هذا الاعتداء وترحيل المسلمين عن أراضيهم، وعدم التعرض لهم ورد ما أخذ من أراضيهم. ولم يستجب البابا والملكان الكاثوليكيان لهذا التهديد من قبل الملك الأشرف»[١] واكتفى كل من فرديناند وإيزابيلا بإجابة السلطان المملوكي بأنهما لا يستطيعان ترك أرض الأجداد في يد الأجانب ومع ذلك فإنهما لا يفرقان بين رعاياهم في النواحي الدينية[٢].

هذا أقصى ما استطاع سلاطين المماليك أن يفعلوه، وهو وإن كان فعلاً محدوداً قاصراً إلا أنه يعبر عن نوايا صادقة لنصرة الإسلام والمسلمين.




---

(١) المرجع السابق: ١٢٦، وذكر صاحب كتاب «موقف الدولة العثمانية»: ٥٥، نقلاً عن مصدر آخر بأنه لم تعد تعر إسبانيا أية أهمية لهذا التهديد لأنها لم تكن قد سمعت أبداً بأن دولة إسلامية أضرت برعاياها المسيحيين المطيعين حيث إن المماليك لم يمسوا المسيحيين في فلسطين بسوء، ولم يمنعوا الحجاج المسيحيين»، وهو تحليل حسن.

(٢) ما أشبه الليلة بالبارحة، هذا فرديناند وإيزابيلا يدعيان أنهما لا يفرقان بين رعاياهما في الأمور الدينية، وهما يسومونهم العذاب، وفرنسا تدعي أنها دولة الحريات الدينية وتطرد فيها بنات المسلمين من المدارس لأجل الحجاب، تباً لهؤلاء الأفاكين.

القسم الثالث

استغاثات الأندلسيين بالعثمانيين

كانت الدولة العثمانية القوة العظمى ـ في ذلك الوقت ـ في العالم كله، وكانت قد أتمت فتح القسطنطينية وأوغلت فتوحاتها في أوروبة، ولذلك لم تكن نجدتهم للأندلسيين مباشرةً لأنهم كانوا مشغولين بفتح أوروبة، ولكنهم حاولوا أن ينجدوهم بشتى الوسائل الأخرى.

ولقد جاءت نداءات الاستغاثة معبرة عن وضع الأندلسيين غاية التعبير، فمما وصل إلى الدولة العثمانية من الاستغاثات:

(أ) وصل إلى السلطان بايزيد هذه الرسالة: «الحضرة العلية وصل الله سعادتها وأعلى كلمتها، ومهد أقطارها. .».

سلام عليكم من عبيد تخلفوا
بأندلس الغرب في أرض غربة
أحاط بهم بحر من الروم زاخر
وبحر عميق ذو ظلام ولجة
سلام عليكم من عبيد أصابهم
مصاب عظيم يا لها من مصيبة

سلام عليكم من شيوخ تمزقت
شيوبهم بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوه تكشفت
على جملة الأعلاج من بعد سترة
سلام عليكم من بنات عواتق
يسوقهم اللباط قهراً لخلوة(١)
سلام عليكم من عجائز أكرهت
على أكل خنزير ولحم جيفة

وهي قصيدة طويلة ركيكة لكنها معبرة، ومما قالوه أيضاً:

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم
بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهوداً كان قد غرّنا بها
ونصّرنا كرهاً بعنف وسطوة
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف
وخلطها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان في أمرد ديننا
ففي النار ألقوه بهزء وحقرة
ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم
ولا مصحفاً يخلى به للقراءة

---

(١) البنات العواتق أي المستورات في بيوتهن.

ومــن صــام أو صــلّــى يــعــلــم حــالــه

ففي النار يلقوه على كل حالة

ومن لم يجئ منا لموضع كفرهم

يعاقبه اللباط شر العقوبة

ويلطم خديه ويأخذ ماله

ويجعله في السجن في سوء حالة

وفي رمضان يفسدون صيامنا

بأكل وشرب مرة بعد مرة

وقد أمرونا أن نسب نبينا

ولا نذكرنه في رخاء وشدة

وقد سمعوا قوماً يغنون باسمه

فأدركهم منهم أليم المضرة

وعاقبهم حكامهم وولاتهم

بضرب وتغريم وسجن وذلة

إلى أن قال:

وقد بدلت أسماؤنا وتحولت

بغير رضا منا وغير إرادة

فآهاً على تبديل دين محمد

بدين كلاب الروم شر البرية

وآهاً على أسمائنا حين بدلت
بأسماء أعلاج من أهل القيادة
وآهاً على أبنائنا وبناتنا
يروحون للباط في كل غدوة
يعلمهم كفراً وزوراً وفرية
ولا يقدروا أن يمنعوهم بحلية
وآهاً على تلك المساجد سُورت
مزابل للكفار بعد الطهارة
وآهاً على تلك البلاد وحسنها
لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة
وصارت لعباد الصليب معاقلاً
وقد أمنوا فيها وقوع الإغارة
وصرنا عبيداً لا أسارى فنفتدى
ولا مسلمين منطقهم بالشهادة
فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا
إليه لجادت بالدموع الغزيرة
فيا ويلنا يا بؤس ما قد أصابنا
من الضرر والبلوى وثوب المذلّة
سألناك يا مولانا بالله ربنا
وبالمصطفى المختار خير البرية

عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا
لعل إله العرش يأتي برحمة
فقولك مسموع وأمرك نافذ
وما قلت من شيء يكون بسرعة
ودين النصارى أصله تحت حكمكم
ومن ثم يأتيهم إلى كل كورة[(١)]
فبالله يا مولاي منوا بفضلكم
علينا برأي أو كلام بحجّة
فأنتم أولو الأفضال والمجد والعلا
وغوث عباد الله في كل آفة

وبعد ذلك يشير إلى رسل سلطان المماليك إلى الملكين فردناند وإيزابيلا:

وقد بلغت إرسال مصر إليهم
وما نالهم غدر ولا هتك حرمة
وقالوا لتلك الرّسْل عنا بأننا
رضينا بدين الكفر من غير قهرة[(٢)]
وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم
ووالله ما نرضى بتلك الشهادة

(١) أي مدينة وناحية.

(٢) إشارة إلى أن فرديناند وإيزابيلا قد اعتذرا لسلطان المماليك بأن المسلمين قد دخلوا في دين النصارى طوعاً، وذلك كذب منهما وبُهتان.

لـقـد كـذبـوا فـي قـولـهـم وكـلامـهـم
عـلـيـنـا بـهـذا الـقـول أكـبـر فـريـة
وديـــن رســـول الله مـــازال عـــنـــدنـــا
وتـــوحـــيـــدنـــا لله فـــي كـــل لـــحـــظـــة
ووالله مـا نـرضـى بـتـبـديـل ديـنـنـا
ولا بـالـذي قـالـوه مـن أمـر الـثـلاثـة
وإن زعـمـوا أنّـا رضـيـنـا بـديـنـهـم
بـغـيـر أذى مـنـهـم لـنـا ومـسـاءة
فسل «وحرا» عن أهلها كيف أصبحوا
أسـارى وقـتـلـى تـحـت ذلـك ومـهـنـة
وسـل «بـلـفـيـقـا» عـن قـضـيـة أمـرهـا
لـقـد مُـزّقـوا بـالـسـيـف مـن بـعـد حـسـرة
و«ضـيـافـة» بـالـسـيـف مُـزق أهـلـهـا
كـذا فـعـلـوا أيـضـاً بـأهـل الـبـشـرة
و«أنـدرش» بـالـنـار أحـرق أهـلـهـا
بـجـامـعـهـم صـاروا جـمـيـعـاً كـفـحـمـة
فـهـا نـحـن يـا مـولاي نـشـكـو إلـيـكـم
فـهـذا الـذي نـلـنـاه مـن شـر فـرقـة
عـسـى ديـنـنـا يـبـقـى لـنـا وصـلاتـنـا
كـمـا عـاهـدونـا قـبـل نـقـض الـعـزيـمـة

وإلا فيجلونا جميعاً عن أرضهم
بأموالنا للغرب[١] دار الأحبة
فإجلاؤنا خير لنا من مقامنا
على الكفر في عز على غير ملة
فهذا الذي نرجوه من عز جاهكم
ومن عندكم تُقضى لنا كل حاجة

ولكن السلطان بايزيد ـ رحمه الله ـ كان يعاني من المشاكل الداخلية والخارجية مما منعه من إرسال المساعدات المطلوبة[٢].

(ب) ولقد أرسلوا رسالة طويلة إلى السلطان سليمان القانوني يطلبون منه إعادة تعيين خير الدين بارباروس ـ والي الجزائر عليها ـ لأنه قد أنجد الأندلسيين كثيراً، ومما جاء فيها: «فإن عبيدك الفقراء المساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس وجملة عدتهم ثلاث مئة ألف وأربعة وستون ألف... رافعين شكواهم وما يلاقون من بلواهم، باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين، وما هم فيه من مكايدة الكفّار ومقاساة التضييق والإضرار... وتحريقهم إيانا بالنّار، وقد تكالب العدو علينا ومدّ السوء والضرر إلينا.. وطالت بنا الأيام، وعاثت فينا يد النكاية والإيلام، وخذلنا جيراننا وإخواننا ببلاد المغرب من أهل الإيمان...»[٣].

---

(١) أي للمغرب.
(٢) «جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس»: ١٢٧ ـ ١٣٤ بتصرف.
(٣) «جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس»: ١٤٠ ـ ١٤١ بتصرف.

(ج) وفي سنة ٩٧٧هـ أرسل ابن عبو ـ أحد قادة مسلمي الأندلس ـ رسالة إلى مفتي إستانبول جاء فيها:

«**أيها الأخ العزيز**.. إن صاحب الجلالة والعظمة السلطان قد أرسل إلينا كتاباً مختوماً بخاتمه يعدنا فيه النصرة بعدد وافر من الرجال المسلحين وبما نحتاج إليه.. وبما أننا نقاسي المتاعب الشديدة.. فإننا نلجأ من جديد إلى الباب العالي نطلب النجدة والمعونة والنصر وإننا إذا ما اندحرنا في هذه المعركة فإن الله سيحاسبه [أي السلطان] على ذلك حساباً عسيراً يوم القيامة»[١].

هذا وإن اتصالات الأندلسيين بآل عثمان قد توالت منذ سنة ٨٩١ إلى سنة ١٠٢٣هـ[٢].

(١) «موقف الدولة العثمانية»: ١٠٣ نقلاً عن مصدر آخر.

(٢) المرجع السابق: ١٣٤.

٥٧٨



وسائل نجدة العثمانيين للأندلسيين

كانت تلك الوسائل ـ كما أسلفتُ ـ وسائل غير مباشرة، ولكن كان لها دور فعّال في إنقاذ عدد كبير من مسلمي الأندلس، فمن تلك الوسائل:

أولاً: محاولة استرداد لما أخذه الإسبان من مدن على الساحل الإفريقي:

إذ أنهم تمكنوا من احتلال أجزاء ساحلية لا بأس بها من المغرب والجزائر مثل سبتة ومليلة في المغرب[1]، واستطاعوا احتلال مدن المرسى الكبير ووهران وبجاية ومستغانم وتلمسان في الجزائر، وطرابلس الغرب[2]، ولقد قام بهذه المهمة القائد المسلم الشجاع خير الدين باربروس وأخوه عَرُّوج الذيْن عينا من قبل الدولة العثمانية، واستطاع خير الدين استعادة الجزائر سنة ٩٢٢هـ، ١٥٣٣م[3]، واستطاع عَرُّوج دخول تلمسان أيضاً، وأخضع خير الدين تونسَ

---

(١) «جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس»: ٢٤٢، ٢٤٦، ولازالت تلك المدينتان بأيدي الأسبان إلى الآن.

(٢) المرجع السابق: ٢٤٨، ٢٥٣.

(٣) المرجع السابق: ٣١٩.

للسلطنة العثمانية سنة ٩٤٠هـ، ولا يخفى في هذا المقام أن الإسبان عندما دخلوا بعض بلاد المغرب العربي استطاعوا أن يضعوا حكاماً خونة من العرب كانوا دائمي الاتصال بهم حين تعرضهم لهجمات العثمانيين، فقد كان هؤلاء الحكام يخبرون النصارى بتحركات العثمانيين ضدهم وفي حالة انتصار العثمانيين ودخولهم البلد يفر ذلك الحاكم ويلجأ إلى النصارى، ولا حول ولا قوة إلا بالله(١).

ثانياً: القيام بحملات بحرية ضد إسبانيا منطلقة من سواحل الجزائر:

وقد عقد ممثل الدولة العثمانية في الجزائر «القلج علي»(٢) اتفاقاً سرياً مطلع سنة ٩٧٧ هـ مع المسلمين الأندلسيين [الموريسكيين] المعتصمين بجبال البُشرات، ويقضي هذا الاتفاق بأن يقوم الموريسكيون بثورة في الوقت الذي تصل فيه القوات الإسلامية من الجزائر إلى مناطق معينة على الساحل الإسباني، وبالفعل وصلت أربعون سفينة من سفن الأسطول العثماني أمام مرسى المرية الإسباني لشد أزر الثوار، لكن أخفق ذلك المخطط بسبب انكشاف أمر أحد رجال الثورة وضَبْطِ ما معه من سلاح(٣).

ثالثاً: القيام بعمليات إنقاذ الأندلسيين وذلك بنقلهم إلى سواحل المغرب:

ولقد تمكن خير الدين باربروس والي الجزائر من قبل العثمانيين

---

(١) المرجع السابق: ٢٩٤، ٣٠٢، ٣١٩.
(٢) أي الشهيد علي.
(٣) «جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس»: ٣٩٨ ـ ٣٩٩ بتصرف.

«خلال سبع سنوات أن يوجه ٣٦ بارجة إلى السواحل الإسبانية لنقل سبعين ألف موريسيكي»[١].

وقد عاملت الدولة العثمانية الأندلسيين معاملة الرعايا العثمانيين ومنحتهم امتيازات خاصة تعويضاً لهم[٢].

«ولقي خير الدين هذا استحساناً كبيراً من لدن مسلمي الأندلس، فقد جاء في رسالة بعث بها أهالي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٤١م ما يأتي:

«وقد كان بجوارنا الوزير المكرّم المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين، وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر. . . فاستغثنا به فأغاثنا، وكان سبب خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين، ونقلهم إلى أرض الإسلام، وتحت إيالة طاعة مولانا السلطان»[٣].

وسيرة خير الدين وأخوه عَرّوج مما تستحق أن تفرد بدراسات كثيرة لما كان لهما من أياد بيضاء على أهل الأندلس والمغرب، ولما أظهراه من بطولات هي قدوة لشباب الإسلام.

رابعاً: قام السلاطين العثمانيون بتطمين الموريسكيين بأنهم معهم ويشعرون بما يجري عليهم، وليس أدل على ذلك من هذه الرسالة:

«إنه على ضوء أمر شريفي إلى بيلرباي الجزائر[٤] فيقوم هذا الأخير

(١) «الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب»: ٨٥.
(٢) «موقف الدولة العثمانية»: ١٣٨.
(٣) «الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب»: ٨٥.
(٤) أي والي الجزائر من قبل السلطان.

على تقديم جميع المساعدات والإعانات إليكم وذلك لما أظهرتموه من همة إسلامية، وغيرة في الدفاع على الدين وعدم ترككم له، وهذا على الرغم من الحروب والقتال مع الكفار أذلهم الله، إذ أنكم أبديتم كل أنواع الإقدام والشجاعة. . . ولا تتخلوا عن إعلامنا دائماً بأحوالكم وأوضاعكم في تلك الجهة».

ولقد جاء في تلك الرسالة أنه وعد بفتح الدولة العثمانية لقبرص فإن الأسطول العثماني سوف يتحول إلى إسبانيا لمساعدة الموريسكيين»[١].

خامساً: حرص العثمانيون على عدم اتحاد أوروبة ضد الأندلسيين أو غيرهم من المسلمين:

فبذلوا الجهود الدبلوماسية، وأقاموا علاقات مع فرنسا لإذكاء عداوتها ضد إسبانيا[٢].

هذه كانت بعض الخطوات التي قام بها العثمانيون لمساعدة مسلمي الأندلس، صحيح أنها قد كانت بمثابة «إنقاذ ما يمكن إنقاذه» وليس عملاً عسكرياً مباشراً قوياً إلا أن ما قام به العثمانيون وغيرهم يوضح بجلاء الروح الإسلامية القوية المتعاطفة مع الأندلسيين.

وقد لخص بعض الباحثين[٣] أسباب عدم تمكن الدولة العثمانية من استرجاع الأندلس، وهأنذا أورده ملخصاً لما فيه من الفائدة:

---

(١) المرجع السابق: ٩٦، ٩٧.

(٢) «موقف الدولة العثمانية»: ١٣٨.

(٣) المرجع السابق: ١٣٧ ـ ١٣٨.

١ ـ بعد المسافة بين العثمانيين والأندلسيين.

٢ ـ تضييق الحصار الصليبي على غرناطة باعتبارها الحلقة الأخيرة في سلسلة السيادة الإسلامية.

٣ ـ عدم اكتمال خبرة العثمانيين البحرية، حيث كانت معظم حروبهم برية.

٤ ـ توتر علاقات العثمانيين بدولة المماليك قلّص فرص التعاون لإنقاذ الأندلس.

٥ ـ انشغال العثمانيين بمجابهة عدد كبير من الأعداء في قارات متعددة.

وفي الختام

ندعو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل شهداء الأندلس، وأن يعيد ذلك الفردوس المفقود، وأن ينشر النور والضياء على جميع بقاع المعمورة، وأن ينصر سبحانه المستضعفين في الأرض من المؤمنين، ويقيض لهم من يسمع صرخاتهم واستغاثاتهم إنه سبحانه سميع مجيب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر المراجع

١ ـ **القرآن الكريم**.

٢ ـ «**الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب**».

٣ ـ «**التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة**»، د. عبد الرحمن الحجي. دار الاعتصام. مصر. الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

٤ ـ «**جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث**». د. نبيل رضوان. مكتبة الطالب الجامعي. مكة المكرمة. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٥ ـ «**الدراسات الإسلامية**» مجلة إسلامية علمية. عدد خاص عن الأندلس. تصدر عن الجامعة الإسلامية العالمية. إسلام آباد. باكستان.

٦ ـ «**موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس**». د. عبد اللطيف الحميد. طبع شركة العبيكان. الرياض.

٧ ـ «**نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء**». للمؤلف نشر دار الأندلس. جدة. الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٨ ـ «**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**» الشيخ أحمد المقري التلمساني ـ تحقيق الأستاذ يوسف البقاعي. نشر دار الفكر. بيروت.